

الرواية الفائزة بجائزة "إلياس كانيّتي" للآداب لعام 2019

رواية

رينيه كاراباش

و المرابطة

ترجمة: خيري حمدان

رينيه كاراباش

و المُرابطة

ترجمة: خيري حمدان



خيري حمدان، شاعر ومترجم ولد في دير شرف نابلس، سافر إلى بلغاريا في ثمانينيات القرن العشرين ويعد حاليًا رسالة الدكتوراة في الأدب المقارن لدى جامعة صوفيا. صدرت له عن دار صفصافة مختارات من الشعر البلغاري بعنوان "تمسح الوحدة قديمها" عام 2019. كما صدرت للكاتب مجموعة قصصية وروايات ومسرحيات باللغتين العربية والبلغارية. نال العديد من الجوائز في مجال الترجمة أهمها جائزة نادي الريشة التابع لوزارة الثقافة البلغارية عام 2019. يعمل ويعيش حاليًا في العاصمة البلغارية صوفيا.

المُربطة

طبعة 2021

رقم الإيداع: 2021/11196

التقييم الدولي: 7-204-821-977-978

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is full translation of Остайница (OSTAJNICA)

Copyright © 2018 Rene Karabash

All rights reserved



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشؤون الفنية

كاراباش، رينيه
المرابطة: رواية/ رينيه كاراباش ، ترجمة خيرى حمدي، الجيزة، دار
صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
١٥٦ ص، ٢٠ سم
تدمك ٧-٢٠٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- حمدي، خيرى (مترجم)
أ- العنوان

٨٩١, ٨١٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١١١٩٦

مقدمة المترجم

تلقي هذه الرواية الضوء على تقاليد ومراسم عريقة في إقليم البلقان وتحديداً في جمهورية ألبانيا. تقاليد غارقة بالعنف والغرابة عفا عليها الزمن ولم تعد صالحة في الوقت الراهن. ألبانيا شهدت مرحلة شبيهة نسبياً بالعصر الجاهلي في العالم العربي، حيث حمل الكثير من الرجال في هذه الدولة البلقانية شارات سوداء على أذرعهم إشارة لنيّتهم للأخذ بالثأر قتلاً أو لأنّهم موضع انتقام دمويّ لسببٍ أو لآخر.

في ظلّ هذه اللوحة السوداء يتراجع دور المرأة في هذا الإقليم لكثرة عمليات قتل الرجال، وتولد بكّيّة؛ والاسم مشتقّ من كلمة «باقية»، على الأرجح انتقلت لألبانيا عبر الثقافة العثمانية التي حكمت لفترة طويلة العديد من دول البلقان.

بكّيّة الحائرة بطبيعة جسدها ورفض والدها -المحكوم بالموت- لأنوثتها تفضّل العنوسة وتدلي بقسم العذرية وعدم الرضوخ لنداء الجسد ونراها تتخذ تدريجياً ملامح رجولية، بل وتعشق الفتاة الجميلة دانا التي تعيش في العاصمة البلغارية صوفيا وهي من أصول ألبانية تحضر للقرية لقضاء العطلة الصيفية.

الرواية تصنّف ضمن أدب الحداثة وما بعد الحداثة، فهي خالية من علامات الترقيم كافّة وبذل المترجم جهداً كبيراً لتوضيح العديد

من المواقع لفهم النصّ، وهناك تداخل واسع في البوح الذاتي الذي تتخلّله حوارات داخلية مفاجئة مع آخرين ما يضيفي على العمل سمة شاعرية مفرطة تصبّ لتثري العملية الإبداعية، لكنّها تحتاج لمزيد من التركيز وفهم طريقة تفكير إنسان البلقان بصورة عامّة.

قد يعتقد البعض أنّ الرواية غارقة بالسواد، لكنّها ترمز للخلاص وتدعو لاحترام وتقدير الإنسانية باسم الحبّ والشرف والكرامة. الحبّ الذي يتحوّل لعداوة وإعلان حكم الموت ما بين الأخ وأخيه «الأخت» الحائرة في تحديد جنسها والدعوة للغفران والخلاص من العادات البالية. كما تقدّم الرواية معلومات وافية عن طباع أهل البلقان، وهذه مناسبة للتعرفّ على تفاصيلها خاصّة أنّ ما يُترجم من لغات البلقان شحيح للغاية مقارنة باللغات العالمية الرائدة، الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية وغيرها.

الرواية كتبت باللغة البلغارية وتحتوي على الكثير من المفردات المستخدمة في العديد من دول البلقان، ألبانيا، مقدونيا الشمالية، الجبل الأسود، كوسوفو وغيرها التي خضعت لعقود طويلة للحكم العثماني وتأثّرت بالحضارة الشرقية بكلّ مبادئها وأعرافها الغارقة بالقدم، لكنّها كتبت بقلم فذّ معاصر يجذب القارئ للغوص في أعماقها مع أولى صفحات هذا العمل. نقرأ في متن هذه الرواية عصارة التجربة التي عايشتها بكية المرأة، رمز الحبّ والحياة والأمل.

خيري حمدان

نهاية البداية

تلك كانت حكاية بكيّة، الفتاة الأثني التي رغبت أن تصبح ابناً ذكراً. اختارت تلك المرأة الحياة أمام الموت. هي ذاتها التي علّمتني الطموح والكتابة بقلبي. أهدي هذه الرواية لها ولكل من يجد ذاته طي هذا المؤلف.

لست آسفة لأنني غادرت مقرّ إقامتي الإبداعية، يجب على كل شخص أن يتواجد هناك حيث أفكاره، ولم لم تكن بكيّة من حولي لما تمكّنت من كتابة هذه الرواية. أرغب بالتأكيد على أنّ الحبّ ليس حكراً على جنسٍ واحدٍ فقط، ولا يخضع للقوانين ولعامل الزمن وإذا ما انطلق المرء ضدّ إرادته الذاتية فإنّ الحياة ستضمّر له العدا. أومن بتوازن الحياة وبالطبيعة والسكينة التي نشعر بها حين تغوص أقدامنا في الأرض ونشعر بخفّة وأنّ السلام قد ملأ رحاب أنفسنا وأنّ فرحاً مطلقاً يملأ فضاءات إنسانيتنا. هذه هي اللحظة التي يمسك فيها الخالق بيدنا، وما علينا سوى أن نبتسم ونتبع أثر الإله.

رينيه كاراباش

المرابطة: قسّم العذارى، امرأة أقسمت على أن تبقى عذراء حسب شريعة لوكا دوكاغيني الألباني، وبدأت تمارس الحياة كرجل وربّ عائلة في المجتمعات الأبوية البطريركية في شمال ألبانيا وكوسوفو ومقدونيا وصربيا والجبل الأسود وكرواتيا والبوسنة. يعدّ هذا القسم من الناحية الدستورية استبدالاً وتغييراً للجنس فور الإدلاء بالقسم. تمتلك المرأة بعد ذلك جميع الحقوق التي يتمنّع بها الرجل، والتي تحرم منها النساء تقليدياً في هذه المجتمعات. كما أنّ العداوات الدموية تميّز الأماكن التي تخضع لهذا التشريع.

لم يتبقّ في الوقت الراهن سوى عدد محدود من النساء اللواتي أدلين بالقسم لأنّ المناطق المعنية باتت غير مأهولة في معظمها. كلّ هذه العادات والتقاليد تحدث وتتواجد على بعد 537 كيلومتراً بعيداً عن بلغاريا. هذه ليست حكاية أو أسطورة بل تاريخ إنسانيّ.

هناك العديد من المرادفات التي يوصف به هذا النمط من النساء: فتاة، صديق، حرمباسا، موشكوبانيا، فيرغينيشا، وموشكارا.

حين كنت في بطن أمي
سمعتُ أشياء كثيرة
وسمعتُ أبي يردد:
أريد ولدًا.

حين ولدتُ أدركتُ أنّ
الابن⁽¹⁾ يعني «لون»
لأنّ أمي باحت لي مرّة
ابنتي الغالية، عينك زرقاوان كالسما
والسما كانت زرقاء
هذا يعني أنّ الابن لونٌ.

منذ ولادتي وأنا أطالب أمي
أن تلبسني أزياء زرقاء دون غيرها
وإذا ما ألبستني رداء بلون آخر
أجهش بالبكاء

1- كلمة "SIN" بالبلغارية تعني الابن الذكر واللون الأزرق ذات الوقت. استخدمت الأديبة هذه المفردة للربط بين الابن واللون الأزرق.

لأنّني ومنذ كنت في بطن أمّي
سمعت أشياء مختلفة
وسمعتُ أبي يردّد:
أريد ابناً.

ألبستني أمّي اليوم ثوباً أزرق
ذهبت لأبي ليرى ثوبي
طلب منّي هو أن أتركه ليستمع
لنشرة الأخبار
ما يعني أنّني جميلة جداً.

لا أفهم
هل يمكنك أن تخبريني
ما معنى
أن أتركه ليستمع إلى نشرة الأخبار؟
وما معنى:
خبر عاجل
طفلة شنقت نفسها بحبل السرّة!

الجزء الأول

وقال قابيل لأخيه هابيل: دعنا نذهب إلى الحقل. وحين بلغا الحقل هاجم هابيل أخاه قابيل وقتله. عندها سأل الإله قابيل:

- «أين أخوك هابيل؟».

أجاب قابيل:

- «لا أدري، أنا لست حارسه».

«وكلم قابيل هابيل أخاه، وحدث إذ كان في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض ” فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك 12. متى عمِلت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائهاً وهارباً تكون في الأرض⁽²⁾ ».

2- الكتاب المقدس: سفر التكوين 4. 8 - 12.

رُسُلُ الموت

التشريع⁽³⁾ كان أقوى على أرض الواقع، وانتشر في كل مكان، يزحف في الأرض، ما بين حدود الحقول، يندس في الطرق وفي الأسواق، يجوب الأعراس، يصعد إلى قمم مراعي الألب، بل وأعلى من ذلك تجاه السماء، حيث يأتي من هناك على هيئة مطر لتملأ المياه جيوب الحقول، لذا تبقى ثلث عمليات الانتقام وتثار الدم قائمة.

إسماعيل كارادية

نيسان الشاحب

أطيب التحيات من أخي

قال أخ نيمانيا هذه الكلمات وأطلق النار من بندقيته مرّة واحدة.

هو جسد أبي الساخن بين أوراق الشجر المتساقطة، عيناه الجاحظتان تحدّقان بالقاتل. عينا أبي الكبيرتان تحدّقان بأخي

3- تشريع لوكا دوكاغيني: حزمة من القوانين الألبانية القديمة.

نيماليا، الذي أمسك بيدين قويتين جسد أبي وأداره إلى هناك حيث مغيب الشمس. القاتل هاج حين رأى أصابعه ملطخة بالدم، مسحها بقميص موراش وعلى الفور نشر رسل الموت خبر الحادثة، أطلقوا النار على موراش، قُتل موراش، قضوا على موراش بالقرب من حقل الرمان البري، عند أشجار الرمان. موراش، موراش، موراش صاحت أمي وغابت متلفعة بثيابها وتنورتها الفضفاضة وسط الشارع تصيح: موراش يا حياتي. والريح تنقل صراخ رسل الموت الذي أدرك أمي في الطريق الترابي المؤدي إلى بيتنا، وسرعان ما أردت أصوات الرسل بأمي أرضاً. غاصت والدي بثيابها وسط الشارع في الوقت الذي حمل فيه أربعة رجال أقوياء جثة والدي على أربعة أغصان من شجر الزان. الطريق غير سويّة والرجال المنحنون يتعثرون في مسيرهم فوق الطريق الكأداء وجثة أبي تترنح متأرجحة كالمخاط. وضعوا جسد أبي الذي كان قد فارق الحياة بين قدمي، والآن بات عليّ أن أسأل حسب بنود التشريع.

عليّ أن أسأل حملة جثة أبي ما ينصّ عليه القانون. أفتح فمي ولا يخرج منه سوى هواء دافئ. الهواء الدافئ في برودة وجوه حملة جثة أبي. الهواء الدافئ الذي نفق أمام وجه أبي. «هيا يا ماتيا» همهم حملة جثة أبي الأشداء متحاشين النظر إلى عيني. لم تكن لديهم الرغبة برؤية الموت في عيني الابنة، بل كانوا يفضلون النظر إلى الموت في عيني الأب. لا توجد لديهم أيّ رغبة للنظر في عيني الابنة على الإطلاق، لأنهم يفضلون النوم بهدوء وسكينة

في فراشهم خلال الليل. وعليّ أنا أن أبقى واقفة على قدمي وأن
لا أفقد السيطرة على جسدي. أسعل ثمّ أسأل: ماذا تحملون لي؟

جرحًا أم موتًا؟

بِكِيَا Bekiya

أقسم بلوكا دوكاغيني سيّد ألب ألبانيا:

إنني وحتّى آخر لحظة من حياتي، حتّى آخر لحظة من حياتي
لن أمسّ رجلاً. لن أمسّ رجلاً وسأحافظ على براءة عذريتي،
ناكرة حضور المرأة في ذاتي إلى الأبد.

ناكرة حضور المرأة في ذاتي إلى الأبد.

أنصاع مطيعة لهذا القسم وأنوي عدم اتباع غيِّ غرائزي
الفطرية، وأنا اليوم أمام اثني عشر حكيمًا أقبل بالاسم الذكري
ماتيا - Matia على أن يصبح اسمي الوحيد، ولتقصّ النساء
شعري ولتحرق أثوابي رمادًا، ولتصبح ملابس الرجال ظهري
وقدمي وبشرتي.

ظهري وقدمي وبشرتي.

ليشهد على قسمي الربّ وهؤلاء الآباء الحكماء بأنني سأحافظ
على قسمي هذا مدعوًّا بجذائلي وشرفي قدر المستطاع.

أنا ماتيا الابن سأعنتي بعائلتي، سأضمن لهم قوتهم وأقضي
كلّ حاجاتهم، حسبما يسمح به التشريع والقانون، لأنّ البطالة
عدوّة الروح. لهذا سأشغل لساعات محدودة بإنجاز أعمال

يدوية، في هذه الحالة فقط سأصبح راهبًا متعبّدًا للحقيقة، حين
أسدّ كفاف يومي بيديّ هاتين. وسأصون هذا القسم بيمين وبركة
ولن أسمح يومًا بما يخلّ بالعهد والشرف وسأبقى وفيّة لكلمتي
وقسمي، لأحظى بالسعادة طوال عمرٍ مديدٍ محاطة بالاحترام
والتشريف. وإذا ما خنت هذا القسم فلتحلّ عليّ اللعنة.

من أجل الأرض والسماء، لهذا الخبز وهذه العظمة.

أقسام.

ماتيا

أخرج من الكنيسة وللمرة الأولى أشعر ببرودة هواء ألبانيا البارد يلفح رأسي، لا بد أنني أبدو كحمار وقد تناثر شعر رأسي في أرض الكنيسة. أن تفترق مع شيئاً ما امتلكته دوماً ليس بالأمر الصعب إطلاقاً، والآن سيحرقون فساتيني كلها باستثناء ثوب جدتي وحذائي اللامع، هدية من جدتي قدّمته لي قبل موتها. ثوبٌ وحذاءٌ لامعٌ لحفل زفافي، كانت قد وضعتهما بجانب الرداء الذي سترتديه في طريقها للأبدية. تعالي يا جدتي لأعطيك شيئاً. لا أدري أيّ الثوبين لي فقد كان قوامنا وطولنا متساويين. جرحت قبل وفاتها يدها وكانت منشغلة بذبح كبشٍ مريض وتسمّم دُمها. خذي يا حفيدتي كسوة الزفاف، الثوبان في منتهى الروعة والجمال، الأول من المخمل الأحمر والثاني أزرق بلون السماء. أخذتُ أنا «بكيّة» الثوب الأحمر والحذاء الأبيض اللامع وأنت يا جدتي أبقيتِ على الثوب الأزرق، «أعيديه لي أرجوك. قطعت وعداً أن أرتديه حين وفاتي». صاحت جدتي. أتعرفين يا غالية، الأزرق يعجبني، لا أحبّ اللون الأحمر، خذيه أنتِ، لن أرتديه أبداً يا جدتي. ستجدينه هناك في الخزانة مع الحذاء اللامع. أخفيتهما

هناك قبل القسم خوفاً من حرقها. في إحدى المرّات كنت على وشك أن ألبسها، في حفل زفافي، في هذه الكنيسة بالذات التي فارقت فيها عالمي وأشيائي الأثوية.

ولا عودة عن هذا القرار.

أخرج من الكنيسة وللمرّة الأولى أشعر ببرودة هواء ألبانيا البارد يلفح رأسي، لا بدّ أنّني أبدو كحمار، لا بأس في ذلك. أقول في نفسي إنّ أئمن المعادن في ألبانيا هو الحرية. المرأة في ألبانيا تعادل عشرين إرادة. لا تنظري إلى أعين الرجال، لا تذهبي للحانة، اعتني بصغارك، عليك أن تغسلي الملابس وتطهي الطعام. حدود حريتهنّ لا يتجاوز إرسال الحليب إلى معمل الأجبان. مقتل بكية كان أفضل الحلول المنطقية التي كان بإمكانني اتّخاذها. أعطوني بندقية وساعة. أصبحت قادرة على التدخين واحتساء الخمر ومخالطة الرجال والذهاب إلى الحانة وزيارة غرف دردشة الرجال. علموني أن أقف منفرجة القدمين وبدأ أطفال الحيّ ينادوني «الأخ ماتيا». سرت كلّ مساء في الشوارع الضيقة للقريّة لأتدرّب، كان عليّ أن أعود طريقة تجوالي الجديدة، أن أتماهى مع وضعيتي الاجتماعية الجديدة وأنني لم أعد جديدة بعشرين كبشاً مهر زواجي، وأنني أملك ساعة، أنا ابن أبي.

أبوك أراد ابناً ذكراً لكنك ولدت أنتِ الأنثى.

أخرسي يا أمّي. ظهر ماتي في ذلك النهار إلى الوجود، انتظرته

ليرتدي ملابسي وأن يُلبسني ثيابه وأن يضع الساعة على معصم يدي. اختفت بكية وطاق شعرها بعيداً في النهر. أتدرين أيتها الصُحفية، نحن البشر نحتاج إلى قوانين وحدود رادعة، أعتقد أننا نحتاج تحديداً لذلك. لا أدري كيف تجري الأمور في بيئتكم، لكنها هنا تسير على هذه الشاكلة، الحرية شأن خطيرٌ للغاية.

القرية كلها تعرف

موراش أراد طفلاً ذكراً لكنه رُزقَ بأنثى.

كلهم يريدون أولاداً ذكوراً في هذه الأنحاء، بسبب ضريبة الدم. الرجال يموتون ولا بديل عنهم للاعتناء بالأعمال والشؤون الرجولية. أعتنق اسم ماتيا الذكورى اسماً وحيداً لي وليكن.

أغادر الكنيسة وللمرة الأولى أشعر..

أنطلق إلى البيت، عليّ أن أتأكد أنّ الثوب والحذاء اللامع هناك. الجبال اللعينة ترتفع من الاتجاهات كافة من حولي. جبال الألب الألبانية اللعينة تمتدّ لآلاف الكيلومترات، أينما توجهت يحيطني جيش من الصخور الجامدة راکمتها أيدي الشيطان، والسماء تتكئ على أكتفها. أسمع أصوات أجراس البغال؟ أجراس القرية المسائية، وعندها هطلت الأمطار. حبات المطر ناعمة دقيقة كأنها ندى ولا يتوقّف المطر عن الهطول، هكذا كما في هذه اللحظة والضباب يخيم ولا ينقشع أبداً. هنا في هذا المنخفض الضبابُ دوماً كثيفٌ للغاية، تبدو الطبيعة كأنها لوحة رمادية من

دون حزن أو فرح. كيف أصفه لكم، كأنه وجهٌ مجردٌ من سمات التعبير. أتفهمون ما أقول؟ ليتوقّف المطر، هذا يكفي. هل سرتم طويلاً لتبلغوا هذا المكان؟ لا بدّ من السير المتواصل في هذه المنطقة الخاوية. الطرق طويلة وغير سوية، لا يدرك شعابها سوى أهاليها. يسرون ولا يتوهون في العتمة.

أمشي في طريق الذئاب ما بين الكنيسة والبيت، النهر يجري إلى يساري طوال الطريق كرفيق مجهول يدرك جيّدًا قدرته على الصمت ورفض محادثة زوّاره، عندها أدركت حقيقة ما أقدمتُ عليه، حين سرتُ بخطواتٍ أكبر من الوتيرة المألوفة. أدوسُ الحصى والحجارة في كلِّ مكانٍ من حولي ولا عودة إلى الخلف أبداً. لا يمكنني أن أستعيد ضفائر شعري بعد حلقتها، وأن أعود بكلماتي التي تفوّتت بها. لا يمكنني أن أنتفخ كضفدع والبوح بالحقيقة دفعة واحدة إلى الأبد. فجأة رأيت أسس البيت في الضباب، كنت قد رأيتها سابقاً عندما مررتُ من هنا برفقة والدي، وللمرّة الأولى انتابني هاجس:

أيعمرُ هذا البيت أم يُهدم!

الأزرق هو اللون المفضل

بلغ ماتيا (بِكِيَّة حسب الوثائق الرسمية) من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا. نعم يا أخي سالي، الأب موراش قتييل ووالدتي ماتت بعد ذلك بوقتٍ قصير. لم يبقَ سوى البقرة نورا وحمائم أبي. اللون المفضل هو الأزرق، لا أخشى سوى الثلج، الثلوج الكبيرة المتراكمة، لكنّ الوحدة شأنٌ آخر. لا، الحبّ هنا محظور يعادل الموت. لا أذهب لزيارة الطبيب وأعالج جراحي بالتبغ. إذا وقع حدثٌ ما أدخّن ولا يوجد تلفاز في الجوار. أنا لا أحتاج لتلفاز، أكتفي بالمذياع لأستمع للأغاني الألبانية وبعض الأغاني الأمريكية إذا ما بُثّت. لا، أنا لا أحسن الغناء، لا أريد أن أغني. كنّا في هذا البيت أنا وأبي وأخي سالي وأمي، هذا يكفي حاليًا، والآن عليّ أن أطعم نورا الجائعة، كما أنّ حمائم أبي تنتظرني لأغلق القفص دونها.

التوأم

حين كنت في بطن أمي

سمعتُ أشياء كثيرة

وسمعتُ أبي يردد:

أريد ابناً.

اسمي يعني الناجية، الباقية على قيد الحياة، تلك التي تمكنت من النجاة.

هم انطلقوا.. عن أي مشفى يتحدثون! قالت جدتي إن أمي حامل بتوأم، ولد وبنت، أنا الابنة، أمّا الولد.. لا تزال كلمات جدتي تتردد في ذهن أمي. أهالي القرية يرددون بأنّ انتفاخ بطن أمي لا يبشّر بصبيّ ذكر. جهد لا يستحقّ التقدير، والدتي تنزف في الحمّام. تعال يا موراش بسرعة، لا نعرف إذا ما كان الطفلان على قيد الحياة أم أنّهما عادا إلى هناك من حيث أتيا. وتوصي جدتي: لا مبرر لولادة هذه الطفلة، لعلّ الطفل الذكر وحده يولد ليحمل اسم العائلة. أنت لا تحتاج يا موراش لبنت وأهالي القرية يرددون: زوجة موراش حامل بأنثى. يا للخسارة! والذي لا يزال على قناعة من أنّ وليّ عهدٍ ذكراً جديراً بالاحترام سيخرج من بطن أمي، وهو على قناعة أيضاً من أنّ المرء إذا آمن بشيء ما

تراه يحدث.

كلّ ما يرجوه الإنسان بصدق يتحقّق،

بطريقة أو بأخرى.

أمسكَ أبي والدتي من يدها ومضى بها إلى المستشفى لعلّ الذي في بطنها ما زال حيًّا. الصُّحُفِيَّة العزيزة، تحمل النساء هنا وكلهنّ أمل أن يلدنَ ذكورًا كي لا يجلبن العار للعائلة. لأنّ دماء الرجولة ستنتشر في صدر الابن العريض ثمّ يقولون له: «لتعش طويلاً لا يقتلك شيء سوى البندقية».

هنا يجب على كلّ رجل أن يمتلك مساحة إصبعين من الكرامة وسط جبينه.

بندقية محشوة بالرصاص ترتقي بك فوق حالة الموت التقليدية. مسألة كرامة ومن العار موت الرجال هنا مرضى. لا أدري كيف تبدو الأمور عندكم، لا بدّ أنّها تشبه مفاهيمنا، أليس كذلك! عمليات الأخذ بالتأر تؤجّل هنا في أثناء اندلاع الحروب وانتشار الأوبئة وخلال التهجير القسري وعند وقوع الكوارث الطبيعية. حين يفقد الموت قيمته الرفيعة تصبح العداوات الدموية أمرًا طبيعيًّا، لكن من الأفضل عدم حدوث ذلك في بيتك. بيتك أنت يا موراش. لا بأس بهذه العداوات لكن بعيداً عن بيتك. احذر يا ولدي، هذه المرأة ستحرق صدرك، أرى عينيها جيّداً، زوجتك من سلالة كاراباشا. أمّي خروف أسود في قطيع أبيض،

تنزف في الحَمَام، الدُمُ يجري، أليس كذلك؟ إلى المستشفى.

الأطباء على يقين، لم يولد طفلٌ ذكر. هو غير موجود. ولكن كيف هذا؟ كيف يمكن للجنين الذكر أن يختفي هكذا؟ لا بدّ أنّه قد انساب مع الدم في الحَمَام. أين ابني؟ لا يمكنني العودة بها وحدها في بطني. أرجوكم يا معشر الأطباء، ساعدوني، أعيدوه لي. أنا آسف يا سيدتي، زوجك ينتظر في الخارج، هل ترغبين أن أخبره. لا. للأسف، الجنين الأنثى في صحّة جيّدة، إذا استمرّت بالنموّ هكذا سترزقون بطفلة معافاة قوية، لذا عليك أن تتجنّبي رفع الأثقال حتى نهاية الحمل، عليك أيضًا أن تتجنّبي الأعمال الجسديّة المرهقة. عليك أن ترتاحي طوال الوقت.

ألم أقل لك يا موراوش: هذه الزوجة لن تلد ابنًا ذكرًا. احرصى يا امرأة. دمي يجري في شرايين الوليد مهما كان جنسه، سأعتني به. لكنّ جدّتي لم تتوقّف عن الندب والردح في فناء البيت. كأنّ أهالي القرية لا يسمعون حديثنا، هم دائمًا لا يسمعون، لكنّهم دومًا يعرفون كلّ شيء.

أبي وأمّي يسيران مذهولين فوق حصى اللعنة وبيكيان في طريقهم إلى البيت. لماذا تبكيان؟ أنا لا أزال على قيد الحياة! واسمي يعني الباقية. أليس كذلك؟ الباقية على قيد الحياة. لماذا بيكيان؟

لم يلمسني أبي حتى بلغتُ سنتي الأولى، وكان يتهرّب منّي

في الغرف الأخرى ولم يكلمني كأنه يحدث نفسه «لا يمكنني أن ألمس هذه الدودة، كم هي صغيرة يمكنني سحقها بيدي».

عندما تؤمن بشأن ما لا بدّ أن يتحقّق

عاجلاً أم آجلاً.

هذا مؤكّد.

«أنت يا ابني الغالي» كان يناديني هكذا. كان يعرف جيّداً أنّ الولد التوأم الذي لم تُكتب له الحياة هو نسخة طبق الأصل منّي. الطول والشعر والأسنان والأصابع ولون العينين الزرقاوين. كلّ شيءٍ يليق بها يا مورايش. بالأمس ثبتت محور العربة. كلّ شيءٍ يليق بها، رشيقة وقويّة البنيان، تتهادى كحصان يافع ما إن تظهر حتى تختفي عن الأنظار وتتنجز كلّ الأعمال المطلوبة. لو كان لك ابناً لما أطاعك هكذا كما أنّها تتقن الكثير من الأعمال.

أولى الذكريات مع والدي كانت حين دخل ذات مرّة إلى غرفتي وحبب بجسده كامل الضوء القادم من نافذتي، أخرج من الجيب الداخلي لمعطفه الثقيل مسدّساً وناولني إياه.

- خذي يا بكّيّة هذا المسدّس. فرحت كثيراً لتلك الهدية وبدأتُ أغني: رفعت المسدّس وصوّبته نحو رأسه ثمّ ضغطت على الزناد وصحت «طاخ، طاخ»، عندها رأيت والدي للمرّة الأولى يضحك ثمّ ضحكنا معاً، هو من دون أسنانٍ وأنا أصيح.. طاخ، طاخ، طاخ.

لو كنت أملك القدرة حينها أن أطلب منه ما كنت أجهله، لو كنت أقدر لطلبت منه التوقّف عن الضحك، لأنّ ما يتمناه سيحدث دون شكّ كما نهاية العالم الحتمية.

كان من الضروريّ أن تجري الأحداث بطريقة مختلفة.

عليكم أن تتحلّوا بالصبر على أيّ حال. إذا تناولت يوماً وجبة دبّس الخروب، سأخبركم ببعض التفاصيل يا ضيوفي، حين تكتفون وتشبعون وإياكم أن تأتون على آخر لقمة في الإناء ولا تضعوا الحطب في النار لأنّ هذا جزءٌ من واجبات المضيف، عليكم أن تعرفوا أيضاً، إذا فعلتم ذلك سأضطرّ لطردهم وربما لقتلكم، هذا ما ينصّ عليه التشريع.

الضيف

أُتسَجَّلون الحديث

أُتسَجَّلونه الآن؟

أذكر يا عزيزتي الصُّحْفِيَّة كُلَّ كلمة وردت في القسم، لا أظنني قد حفظته عن ظهر قلب. قبل أن أتوجَّه إلى الكنيسة تجولت وسافرت حتَّى إلى القرى المجاورة. القسم تتعلَّمينه شئت أم عارضت. القسم بمنزلة قدَّاس موت، هو ذاته يتكرَّر دومًا في كلِّ مراسم الدفن، وحدهم العازفون في الجوقة يُستبدلون لأنَّهم يموتون أيضًا ويحتلُّ أماكنهم آخرون، وأنتِ إذا استمعت لقدَّاس الدفن يومًا بعد يوم ستتعلَّمينه جيّدًا، فهنا تكثر حالات قتل الرجال أخذًا بثأر الدماء، ضريبة الدّم أبدية هنا. كلُّ شيءٍ مرتبط بالتشريع والضيف هنا محلُّ كرامة وتشريف، وأنتِ ضيفتي وأنتِ الأكثر أهمية. الضيف في ألبانيا معزَّز، الضيف أولًا ثمَّ العائلة، البيتُ ملكُ الله والضيف. إذا ما دقَّ أحدُ باب البيت في ألبانيا فعلى المضيف أن يستقبله وأن يأويه. ربّة البيت تغسل قدمي الضيف تجهِّز له سرير النوم وتشعل النار في المدفأة وفي اليوم التالي يستودعون الضيف. لكن إذا صادف أن وقع الضيف ضحية لكمين أدّى لقتله، حتَّى إذا قُتل الضيف أمام باب البيت قبل أن يدير ظهره

للمضيف، ولا يزال ينظر في عينيه بعد توديعه عند مدخل البيت، عندها يصبحُ المضيفُ مجبراً على الأخذ بثأر الضيف، واجبك أن تريق الدماء للانتقام للضيف المغدور. لا تخافي يا سيدتي، لن يحاول أحدٌ هنا اغتيالكِ فأنت لست محلّ عداوة دمويةٍ لأَيِّ من أهالي القرية. عدا عن ذلك أنتِ امرأة، والنساء هنا لا يتحمّلن عبء العداوات الدموية. أنا يمكنني أن أطالب بالثأر ولكن ليس أنتِ، لأنك لم تقتلي أحداً في هذا المكان وأنتِ امرأة. أليس كذلك؟ أنتِ ضيفتي أيّتها الصُحفية يمكنكِ المكوث هنا قدر ما تشائين، هذا ما ينصّ عليه التشريع، لم تقتلي أحداً وأنا أيضاً لم أقتل أحداً.

صمت

هناك شيئان لا يملك الضيفُ صلاحيةَ القيام بهما، أتفهمين؟ أن يأتي على آخر لقمة في الصحن وأن يضع الحطب في الموقد. إذا فعلت ذلك فإنني على الفور وأنتِ لا تزالين تنظرين إليّ، يمكنني أن أقف على قدمي، أن أفتح النافذة وأصرخ بأعلى صوتي تجاه القرية معلنة بأنّ ضيفي قد أهانني، وهذا يمنحني حقّ قتلِك والانتقام لشرفي. لكن أنتِ تعرفين بأنني لن أقدم على قتلِك ولماذا أفعل؟ كم شخصاً قابلتِ في القرية، ثلاثة أشخاص وعلى الأرجح سترين ثلاثة آخرين. أنا آخر المتبقين في القرية وربما في كلّ أنحاء ألبانيا، لهذا السبب حضرتِ أنتِ إلى هنا. لمن أظهر تقاليد الشرف ولماذا أعيش طوال الوقت وحيدة برفقة صديقتي الوفية البقرة نورا؟ معظم الشيوخ ماتوا لم يتبقّ سوى

خمسة يصدرون الأحكام المتعلقة بقضايا الانتقام والثأر وسكب
الدماء. لا تستعجلي طرح الأسئلة، لكل شيء وقته المناسب. أريد
منك أمراً واحداً فقط، أترين تلك العلبة المتواجدة فوق الخزانة
هناك. افتحيها.

الرسالة الأولى

مرحبًا يا بكية

أتمنى بكلّ جوارحي أن تصلك رسالتي هذه، لأنني على بينة من صعوبة وصول المراسلات إلى أهالي القرية لعدم وجود عناوين محدّدة. منذ فترة وأنا أفكر بالكتابة لك كلّ يوم. تعرفين جيّدًا أن هربي جاء نتيجة لخطأ فادح ارتكبته أنتِ ويتعدّر إصلاحه. وتعرفين كذلك أن كلّ واحد منّا يبحث عن الخلاص، أليس كذلك؟ هربي من القرية كان أفضل الحلول الممكنة لشخص يفكر بعقلانية. شخص لا يخضع للتشريعات المتوارثة. نعم، هذا أنا.

لا أشعر بالندم لهربي، وأنتِ المقتنعة بالتشريع بقيت هناك راسخة. على أيّ حال لا يجوز لشخص مترهّل وكسول أن تطأ قدمه أراضي التشريع العريقة. كلّ شيءٍ لديكم وليمة جنائزية، والقتل يتمثل مع الشرف والفخر. أليس كذلك يا ابنة أبيك؟ للضعفاء أمثالي هناك بابٌ مشرّعٌ واحدٌ فقط هو باب التشريع. نعم، لكنّي فاجأت الجميع وخرجت من باب آخر. الحقيقة أنّك أنتِ وحدك فهمتني جيّدًا. لا أزال أجهل حتى اللحظة نقطة التشابه والاختلاف الكبير ما بيننا! أفكر بهذا الأمر كأنّه لغزٌ لم أجد له حلًّا حينما كنتُ صغيرًا، وحين كبرت نسيت هذه المعادلة.

لماذا اخترتني أنا بالذات؟ لماذا وضعت على معصمي الشارة السوداء معلنة عن رغبتك بموتي؟ من المؤكد أنه لم يكن من السهل عليك أن تختاري الشخص المرشح للموت. أنا أم موراش؟ حدرا بدرا.. أتذكرين، هكذا كنا نلعب ونحن صغار. من سيربح الرهان، أتذكرين؟ وكنت دوماً تفوزين. لماذا وضعت الشارة السوداء على ذراعي؟ أنا أعرف لماذا فعلت ذلك، أنا أعرف كل شيء حتى إنني أعرف أكثر مما ينبغي لي أن أعرف، لكنني أريد أن أستمع للحقيقة من فمك. ماذا حدث في ذلك المساء حين ذهبت لإحضار الحليب وتأخرت عن وجبة العشاء؟ ذلك المساء نفسه الذي سبق إعلانك عن قرارك المصيريّ بتحوّلك لمرابطة؟ حدث أمرٌ ما في ذلك المساء، ماذا حدث يا ترى؟

أعرف أنّك غاضبة مني لأتني هربت ولهدّ توجّب قتل موراش. أنا أيضاً غاضبٌ منك لأسباب كثيرة لكنّ الغفران أسهل يا أختي. أرجو أن لا تزعجك رسائلي وأن لا تطلبي مني التوقف عن الكتابة. تتنابني رغبة كبيرة بحضورك لطرفي للبوح بكامل الحقيقة وجهاً لوجه كما كنا نفعل ونحن صغار. الحقيقة أم الجرأة الوقحة؟ الضعفاء يختارون الحقيقة لأنهم يخشون المواقف الجريئة. أتفهم الآن أنّ الخيار الأكثر جرأة هو قبول الحقيقة. الجرأة والوقاحة سمة الكاذبين الذين يختمون خلف قناع الشجاعة، أولئك الذين يفضّلون القفز في النهر بحثاً عن الهرب أو القتل بدلاً من قول الحقيقة.

أرجوك اكتبني لي، أنت أكملتِ دروسَ تعلّم الألبانية بعد غيابي، ليس كذلك؟ أنا بانتظار رسائلك. عنواني على المغلف. أشتاق لك كثيراً

وأعانقك. اخبري أمي بأنني أحبها وأنه لم يمضِ يومٌ من دون أن أذكرها.

نسيت أن أخبرك بأنني أعيش في بلغاريا والكل هنا يعرفني باسم ميخائيل. ظننتُ بأنّ تغيير اسمي سيّتيح لي الفرصة لتغيير ماضيّ. لكنّ هذا محض وهم ينتاب الكثيرين وأنا أحدهم. نحن نبقى أسرى أسماءنا وأعمالنا حتى النهاية.

سالي

مدينة صوفيا

بلغاريا

08.07.2017

سالي

تأخّرت ولادة أخي سالي عن المدّة المألوفة. حين بلغت سنتي الأولى من العمر قالت أمّي: رزقنا ولدًا وقد تدلّت أصابعه كأنّها قطعُ جلدِ قطنيةٍ صغيرة، أطلقت عليها والدتي مسمّى «قطنيات». ابنُ أوشك على الاختناق لكنّه خرج ونجا. تعلّمت العدّ باستخدام أضلاع أخي. كان نحيلاً للغاية. جيّد أنّك رزقت يا موراش ابناً لكنّه يشبه قصبه، يطير إذا ما هبّت ريح. ما هذا الولد الذي خلفته يا امرأة؟ كأنّه عارض أزياء في المعسكر النازي بوخينفالد. صحّة بكية أفضل من بنيان ابنك. هذا الولد ضعيف للغاية لكنّه ينمو ويكبر نكيًا وسويًا، يتعلّم أصول اللغة الألبانية وهو في الخامسة من عمره فقط. لا يظهر حماسًا وهوسًا بالبنادق، يقرأ طوال النهار حكايا نيكرمان ويحك معها قصصًا مقرفة. «أطلق النار يا سالي!». ويمضي ما تبقى من الوقت يرقص على البلاط وخصره محسورٌ بشال الجدّة. أتسمع ما أقوله، اقتل هذا الطائر الذي أكل حصّتي من الذرة. أصبحنا محلّ سخرية أمام أهالي القرية وأمنعك من مواصلة الرقص. تسلّل عصفورٌ في فوهة قفص الحمام نسي والدي أن يسدها، عندها قدّم أبي بندقية لأخي سالي وصاح به: أطلق النار. العصفور علق بخيط من القنب مربوط بحجر في أسفل القفص، يرتفع الطائر إلى الأعلى ثم يسقط في أسفل القفص، حجمه قرابة قبضتين. أطلق النار أيّها الفاشل! لم أتجرأ

للنظر في عيني أخي وشعرت بالخجل من الطائر. ركزت أنظاري في الحجر الذي يتحرك كلما حاول العصفور الطيران إلى الأعلى: هيا يا سالي، لنر إذا رزقتُ ابناً أم بنتاً ساقطة. أخي سالي أبقى البندقية مصوّبة إلى الأرض وجسده يرتجف، أمّا أنا فتوقفت عن النظر إليه وبقيت محدّقة بالحجر، كما تعلمون تغوص الأعين إلى الأسفل حين تشعر بالخزي والعار والشفقة.

انطلقت رصاصة من البندقية، أتبعها أبي بسلسلة من الشتائم، تبين بأنّها قد أصابت ربة قدم والدي. ماذا حدث بعد ذلك؟ تناول أبي البندقية، قتل العصفور وبنطاله مبتلّ بالدماء. بقيت ملامح وجهه على حالها، لم يبكٍ وصاح: يلعن أمك الكاراباشويّة، اغرب عن وجهي أيّها الحقيير، كيف تجرّأت على إصابتي؟

أحدّق في الحجر الذي توقّف عن الحركة، تلوّن الحجر بالأحمر.

مياه خضراء حجر أحمر

حرر سالي الحجر من خيط القنب.
الحجر كأنه خنفسة
رفعه فوق رأسه
ثم قذفه فوق حبة جوز خضراء، قذف به إلى أعلى..
ظهر رأس موراش من فوق الحاجز
موراش يقطع أخشاب الجيران
سالي يحطم قطع الجوز الواحدة تلو الأخرى
يلتهم الجوز من دون أن يقشره
يملاً فمه ولا يترك مساحة للقمة جوز أخرى
حبّات الجوز الطازجة لوّنت أصابع يديه بصباغ أسود
قشورها الخضراء تنهرس تحت ضربات الحجر
مياه خضراء ترشق قدمي سالي
هناك، حيث تساقط، يصبح لون بشرته غامقاً
نمشٌ دقيقٌ على كاحلي قدميه الهشّتين
سالي يمضغ الجوز
سالي يمضغ الموت

ارموا العصفور للقسط. تصيح أمي.
ثمّ تدلق وعاءً من الماء لغسل بقعة الدم
سالي يتقياً
رأس موراش لم يعد ظاهراً فوق الحاجز.

موراش

يمتصّ أبي عنق ديكٍ مسلوق، العنقُ رقيقٌ غير مكتنز مليء بالعصائر وصوت الرشف يتردد في تجويف العنق. ينسال دفق العصير على ذقن والدي ومن هناك عند ياقة قميصه حيث ينقسم لجزأين ويستمرّ العصير يسيل فوق صدره بتمائل ليختفي في بطنه تاركًا بقعًا مبتلة في كل مكانٍ مرّ به. قدّم أبي ملفوفة بشاشٍ أبيض بانّت عليه بقعة دم حمراء. أخي يمضغ كسرة خبزٍ جافّ، يحاول جاهدًا مضغها وتعلق اللقمة في حنجرته. أخي ليس جائعًا، أخي شبع من تناول ثمر الجوز بشره، كسرة الخبز جافة، تعلق في حنجرته، يمدّ أصابع يديه السوداء لكأس الماء، يتناول جرعة، الماء يغسل فمه وتنتقل اللقمة إلى جوفه، يفتت اللقمة إلى قطع دقيقة، يبتلع أخي المضغ، ارتداد صوت الابتلاع يتردد في الغرفة، تصفرُّ سكك الستائر في الغرفة. توقّف والدي عن امتصاص عنق الديك، والدي يحدّق بأخي، ولا تزال اللوحة التي عايشها خلال النهار ماثلة أمامه. توقّف صوت رشف العصير عبر تجاويف الرقبة وفي البعيد يُسمع صوت الحدوات على الطريق، أمّي لا تتنفس، نسيت أمّي كيف تتنفس وموراش يرفع يده عاليًا فوق رأس سالي.

موراش

تتنهّد من تحت أرض الغرفة.

يضرّب موراش بقبضته الطاولة، تتقاذز الأواني: يلعن أصل
أمّ الكارابشويّة. يقف سالي ويبتعد في عتمة الحديقة، يعود
سالي لجره المألوف.

البقعة الحمراء فوق لفافة قدم والدي تكبر وتتّسع.

دانا

حين ولدتُ أدركتُ أنّ

الابن يعني لونا

لأنّ أمّي باحت لي مرّة

ابنتي الغالية، عينك زرقاوان كالسما

والسما كانت زرقاء

هذا يعني أنّ الابن لونٌ.

بكيّة، أحضري المبرد من الصندوق تحت المغسلة، عند موسى الحلاقة، لا يمكن لعشّ الحمام هذا أن يصنع نفسه بنفسه. أبي يحلق ذقنه كلّ يوم عند حوض المغسلة، ثمّ يمسح وجهه بالمنشفة، ينظّف ببطء وعناية حدّي موسى الحلاقة بالمنشفة كأنّه يجلخه ثمّ يفرسه في شرخ متواجدٍ في الإطار الخشبيّ للنافذة. الشمسُ في ألبانيا خجولةٌ وشحيحةٌ، ويغلب الضباب في أجوائها. كما تعلمين، سطعت الشمس في ذلك النهار بقوة وبصورة استثنائية في كلّ أنحاء المكان. دخلتُ غرفة والدي، المبردُ في المكان الذي أشار إليه والدي، تناولته ونظرت إلى المرأة المستديرة الصغيرة فوق المغسلة. للمرّة الأولى منذ بداية العام سطعت أشعة الشمس،

رأيتُ موسى حلاقةً والدي مغروسًا في إطار النافذة الخشبية ومنه
انسدل ظل رفيع استقرَّ فوق وجهي كشارب كثَّ غامق اللون لزج.
شاربٌ ملتفٌ إلى الأسفل. شاهدتُ ذاتي في المرأة، شعرت ببرودة
الموس فوق شفتي العليا. ارتفعت يدي بتلقائيةً ولامستُ أصابعي
الوردية الطفولية ظلَّ الموس، يصعب عليّ أن أصف مشاعري في
تلك اللحظة. أحسستُ بفيض من القوَّة أو الفرح، لا أدري ماهية
ذلك! لكنِّي رغبت أن يراني آنذاك.

كأنِّي ارتديت للمرة الأولى لباسًا مناسبًا ليس واسعًا ولا ضيقًا،
لباسًا يليق بي. لم أراوح مكاني والستائر الزرقاء من خلفي تنتفخ
وفي المرأة قبالي شابٌ يحدِّق بي. يشبه إلى حدِّ بعيد البطل
القومي إسكندر بيك. أذكر مرَّة أن أمِّي عرضت أمامي صورة
قديمة قبل ولادتي، بدت فيها واقفة مع أبي أمام نصب البطل
العظيم إسكندر بيك في تيرانا، كانت تلك المرَّة الأولى التي غادرا
فيها القرية، بعد ولادتي غادرا القرية مجددًا لحضور حفل زفاف
أحد أبناء عمِّ أبي..

أحدهم يطرق زجاج النافذة وجسدي يرتجف، ظننته والدي
لكنِّي أدركت بأنها ابنة حفيدة الجدَّة تساني من الجهة الفوقية
للشارع. الفتاة تعيش في بلغاريا لكنَّها تحضر لزيارة الجدَّة
في القرية خلال العطلة الصيفية. كانت في عمري لكنَّها أطول
وأجمل منِّي. الجميع يتجنَّب مصاحبته لكثرة صمتها. دانا ذات
البشرة الشفافة تقف عند النافذة وتبتسم لي. لا أزال أذكرها

حتى اللحظة، أسنانها بيضاء كالحليب وخجلها مفرط للغاية. أحاطتني بيديها الطويلتين وأزاحتني خطوة إلى جانب المغسلة. التصق شاربي بالستارة الزرقاء من الخلف، ما زلت أشعر بها كحضور ما، كأنّ دانا أحد أقربائي وأشعر بالخجل منها وأرغب بالاختفاء عن أنظارها وهي تحدّق بي بأسنانها البيضاء، لم أدر كيف أتصرّف. قد أسألها: لماذا تحدّقين بي أيتها المعتوهة؟ أو أن أبادلها الابتسام. بلعتُ ريقِي وسمعتُ صوتاً ينادي: دانا عودي بسرعة، أين أنتِ يا بكّيّة؟ تعالي فالشمس تكاد تغيب. نظرتُ إلى الباب ثمّ إلى النافذة لكنّ دانا كانت قد اختفت وبقي ظلّ هيئتها هناك في بؤبؤ عيني كأيقونة في إطار النافذة. تناولتُ المبرّد وغادرتُ الغرفة لكنّ هيئتها استمرت تلاحقني أينما وجّهتُ أنظاري. أغمضت عينيّ ثمّ فتحتهما على مصراعيهما لأراها ثانية ودانا تتضاءل في كلّ محاولة أخرى لرؤيتها حتى تحوّلت أخيراً لنقطة صغيرة شاهدها أخيراً على جبين أبي.

الندوب

ألبستني أمي اليوم

ثوبًا أزرق

زحفتُ نحوَ والدي ليرى الثوب

قال أبي:

دعيني، أريد أن أستمع لنشرة الأخبار

ما يعني دون أدنى شكّ

أنني جميلة جدًا.

أين كنتِ؟ أنتِ ملطّخة ثانية بالطحين. لعبتُ مع دانا في المطحنة. لكنّ الوقت تأخّر ولم تغلقي باب قفص الحمام، خطفَ الصقرُ حمامةً أخرى، أنت مذنبه، أهالي القرية يقولون بأنك قد تعلّقت بحفيذة الجدّة تساني.

تبدين غير سويّة منذ أن حضرت الفتاة إلى القرية. ستسمعين الكلام وتطيعين، هناك قوانين يجب أن تُحترم في هذه العائلة.

لا تضربُها يا موراش، هذه ابنتك ولا توجد فتيات أخريات في المحلّة. هي تساعدك طوال النهار في أعمالك ولا يوجد بديل عن تلك الفتاة لتلهو معها. عليك أن تصمتي، من طلب منك التّدخل. عليك أن تلتزمي الصمت طالما أوصل التحدّث مع ابنتي! ماذا كنتما تفعلان في المطحنة؟ كنّا نقرأ. ماذا تقرئين وأنت أميّة، هل تحاولين الكذب على أبيك؟ حذار.

ارتفعت يدُ أبي فوق رأسي كطائر جارح. طيّات ثوب أمّي تطايرت في محيط المكان، ارتفعت مع الهواء الذي خلفته يده. توقّفت عقاربُ الساعة، لم يتبقّ سوى صوت الصراخ ونبض الشريان على جبين والدي. أنظر إليه مباشرة في عينيه. هل تراني؟ هذه أنا، ابن أبيها. لا يمكنك أن تضرب ابنك الوحيد، ليس لديك ابناً غيره. هذه أنا بكّيّة، ابنتك، الابن. انغلقت يد أبي في قبضة ثمّ تحطّمت لقطع زجاج صغيرة على الأرض. ساعة اليد تشدّ أطواقها إلى الخلف وتعيدني إلى هناك حيث أرغب أن أتواجد الآن.

أنا وديانا مستقلّتان الواحدة بجانب الأخرى على حجر الطاحونة الكبير. ترانا نتحرّك في رحم الطاحونة. ما هذا الندب؟ نقطفُ أنا وأمّي زهر النسرين وفي الأثناء خدش الشوك وجهي برؤوسه الحادّة. وأنت، ما هذا الندب؟ كنتُ ألعبُ مع والدي لعبة شبيهة بالطائرة، أنا أقفز وهو يمسكني، لكنّه فشل في إحدى المرّات فأصيبَ حاجبُ عيني.

هل اعتذر منها؟

اعتذرت لها.

هل اعتذرت منه؟

اعتذرت له.

ثمّ مارسنا لعبة أخرى. هل أنتِ زهرة نسرين؟ بل أنا طائفة.

هل أنتِ طائفة؟ بل أنا زهرة نسرين. الندوب تلمع في العتمة.

نرانا للمرّة الأولى.

الصلب

في اليوم التالي تجمّع الجيران عند مدخل البيت، اختلطت أحاديثهم ولغظهم وبين الحين والآخر يسمع صوت ضحك. عوفيتَ يا مورايش لقد تمكّنت من الانتقام منه. يا له من حيوان قذر لعين، خطف والتهم الكثير من الحمام. كان اليأس قد تمكّن منّا. لبستُ سترتي وانضمت إليهم. ارتجف جسدي عند مدخل البيت. كانوا قد علّقوا الصقرَ على صليبٍ خشبيّ. زرعوا مسمارين في جناحيه.

الرياح تلاعبُ أطراف ريشه، ترفرف، لكنّ الجناحين ساكنان من دون حراك.

نيمانيا

القهوة هناك، أضيفي السكر. لكنني أشربه مرًا. تحت الملاءة
ستجدين فتّة حساء. في صباحٍ مماثل. يصرخُ والدي:

- ما بكِ تحدّقين بهذا الحجر؟ ألا تشعرين بالسعادة لأنك قد
أصبحت عروسًا؟ نيمانيا شابّ من عائلة عريقة، لقد حان وقت
زفافك بل تأخرت حسب الأعراف والتشريع. أنتِ شابّة في عمر
الزفاف.

- لكنني لا أعرفه. وجيلكو يروّج بأنّه قبيح للغاية.

- ستتعرفين إليه يا ابنتي. عن أيّ قبح تتحدّثين؟ نيمانيا
سيدفع عشرين ثورًا مهرًا لكِ، وسيقدّم كيسّ علف مع كلّ ثور.
ولديهم جهاز تلفاز مثلنا وزوجة أخيه تمتدحه كثيرًا. هل هذا
واضح؟ لا أريد الاستماع لمزيد من الأقاويل. اجمعي أمتعتك، غدًا
سنعقد زفافكما.

- غدًا يا أبي؟

- نعم، غدًا.

قد يتواجد في بيتهم جثمان أحد أفراد العائلة، لا بأس
سيتخلّصون منه لتدخل العروس البيت. وأنتِ ستغادرين إلى

هناك حيّة أو ميّنة. أعطيناها كلمة وانتهى. هكذا تسير الأمور دومًا، هكذا كانت خلال الحكم العثماني وخلال مراحل الاحتلال وإبان جمهورية ألبانيا الأولى والثانية، ولن تتغيّر في الوقت الراهن وفي الغد أيضًا. التشريعات لا تعترف بالزمن يا ابنتي. إياك أن تردّدي على مسامعي كلمات عقيمة. الزواج صفقة. الحبّ ضعف ولا يمكن فسخ الزواج بعد عقده وإتمامه. لذا، كوني حكيمة يا ابنتي.

- غداً يا أبي.

- غداً؟

- أنتِ على بينة بأنّي سأضع في متاعكِ رصاصة ليقتلكِ بها نيمانيا إذا تبينَ بأنكِ فاقدة لعذريتك. هل أنتِ عذراء؟

- عذراء.

- لا تبكي يا بكية، لن تجدي أفضل منه. قالت أمّي ودلقت وعاء من الماء لغسل أحد مرافق المنزل.

جناح الطائر

كنت أساعد أبي وأنا صغيرة في الأعمال الرجولية ولا أزال أذكر ذلك اليوم الذي صمّم فيه بيتًا للحمام، قدّم الجار زوجًا من الحمام هديّة لوالدي عرفانًا منه بعد أن ذبح والدي عجلهم. سأله الجار أتريد فاصوليا أم زوج الحمام هذا. فضّل والدي الحمام. همهم والدي من تحت شاربه الكثّ وسرعان ما أردف الجار.

- هدية رائعة يا فتى، زوج الحمام هذا من فصيلة صربية تحلقّ عاليًا. أحضرته من صربيا. هذا الحمام كان يقدر على التحليق والطيران عاليًا ولفترات زمنية طويلة خلال فترة الاحتلال العثماني ويعتبر فخرًا وطنيًا، يمكنه الطيران لأربع ساعات متواصلة، أحضرها والدي بعلبة من الكرتون.

حاذري يا امرأة أن تنتفي ريش الحمام لتعدّي منه حساء!

زوجي موراش أصيب بلوثة، أهدها العطار زوج حمام وها هو ينشغل طوال النهار بتصميم بيت لها في كوخ كلب جدّي الذي ينام فيه لحماية الأغنام. نعم، عرفت أمي أيضًا بأنّه قد نظّف الكوخ من الداخل، ثبّت العشّين ودهن جدران الكوخ وحدد أمكنة الباب والنوافذ ثمّ وضع قفلاً على الباب، ليحول دون الدخول..

يدخل والدي إلى الحانة وعندها يتأهب أصدقاء والدي المقربون، جميعهم يصكّون أسنانهم ويقبلون يد موراش ويهتفون: أخبرنا يا موراش عن زوج الحمام؟ ألم يطر بعد؟ ويجيب أبي «بالأمس قصصتُ أجنحته وتركت القليل من الريش كي لا يطير ويحلّق عاليًا، لن ينهل من الهواء الطلق الذي سيحمله بعيدًا. سيمكث الحمام في الوقت الراهن لمدة أسبوع في القفص ليعرف معنى البيت».

الحرية أثنى أنواع المعادن في ألبانيا.

لم أגادر القرية منذ سنوات طويلة، توقفت عن تعدادها، لست بحاجة لذلك، لديّ كل ما أحتاجه هنا، وحدها العزلة وانعدام من أتحدث إليه يثقل عليّ كثيرًا. لا أحد سوى البقرة نورا وبعض الجيران، لا يوجد شباب مثلي في القرية وأحيانًا أتحدث للحمام، وعلى ما يبدو تفهمني نورا أكثر من الآخرين. تعالوا معي..

أترون زوج الحمام هذا؟ إنه حمام تركي بهلواني، يتقن اللعب في الفضاء، يتقلّب ويستدير في الهواء الطلق. والدي يراقبه لساعاتٍ طويلة حين ينصرف للعب. مرّ مواطنٌ تركيّ بحينا يمتطي عربة محمّلة بأقفاص حمام متنوّعة. اشترى والدي منه حمامًا بهلوانيًا وقد شغف كثيرًا بالطيور. اقتنى كذلك زوج حمام مقدونيّ، ذلك المرقط باللون الأبيض، ذكرًا وأنثى كملاكين، ساطع ومثير. انظروا إليها هناك في القفص تلك التي تمتلك أساور على ظهرها. الحمامة الملاك ستبقى هناك. التركيّ باع لأبي زوج

حمام من طراز البومة ذي منقار قصير، بالكاد تلتقط طعامها لقصر مناقيرها لذا خصصنا لها أطعمة مناسبة. الحمام الذي ترونه هنا هو الأقدم، حالته رثة ونادرًا ما يطير، يفضل السير على الأرض والتقاط ما توفر من الأعشاب. ما تبقى من الحمام يتواجد في العش الكبير خلف المنزل. صممه أبي قبل وفاته. أخذ الحمام يضع بيضًا كثيرًا وبدأ الخلاف والقتال بينه للحصول على موطن قدم في القفص، لكنّ والدي رفض أن يتخلص من بيوضها. التركيّ أهدى ذكر حمام وحيد لوالدي إكرامًا له فقد اشترى منه الكثير من أزواج الحمام. هذا الذكر يشبه إلى حد بعيد البومة. المثير يا سيدتي الصُحُفِيَّة أنّ غناءه قريب من نعيق البوم وربما مواء قطة، لذا أطلقنا عليه اسم البومة. هنا على طول الشارع يستمعون لصوت البومة دون أن يرونها! ثم أدركوا أن الصوت يصدر من بيتنا وعندما ظهرت بومة حقيقية لم يعرّفها أحد أدنى انتباه، والموت أحيانًا يتجاوز قرينتنا. أطلق أبي على ذكر الحمام اسمي أنا. «خذ أيّها الصغير اسم بكية، هذا الطائر لك تقديرًا للمساعدة التي قدمتها لإنجاز بناء بيت الحمام. أنت تسمعين الكلام.

يا أنت يا ابن أبيك.

أخبرت أخي أنّ بإمكانه أن يلعب ويلطف الحمام قدر ما يشاء. أنت لا تشبهين أخاك، أنت قوية ومتينة البنية، أنت ابن أبيك. أمضينا النهار كله مع والدي نصنع ونصمم أقفاص الحمام،

وفي المساء نغسل أيدينا الواحد بعد الآخر على حوض المغسلة الخارجية لنجلس بعد ذلك إلى مائدة الطعام. كانت أمي قد طهت لنا دجاجة. تغلي الدجاجة ثم تضيف إلى القدر الملح والبهارات. هذه هي الوجبة المفضلة لوالدي. دجاجة مغلية ومملحة. وتصيح أمي: تغدّي يا موراش، هذه الوجبة حضرتها من أجلك، تعمل طوال النهار وأنت مُتعب للغاية. أنت بحاجة لمزيد من القوة والطاقة.

أنا لستُ جائعًا.

امتصنا أنا وسالي وأمّي عظام الدجاجة اللينة. سالي كان مقلًا في تناول الطعام. والدي جلس إلى المائدة واكتفى بشرب الخمر، أفاد بأنه يشعر بالغبثان لأنه تنشق رائحة دهان كيميائية. ينظر أبي إلى الدجاجة في القدر بتقرّز وحين يشعر أنّ أحدنا يراقبه يحوّل نظريه على الفور إلى النافذة محاولاً تفادي قراءة أفكاره.

لماذا تحدّقين بي؟

كأنّه يخشى أن يدخل شخصٌ ما إلى رأسه ليعرف خبايا ما يدور فيه، ليدرك ما يخفيه عنّا. يخفي أخي يديه تحت الطاولة وفي البعيد يرتفع صوتٌ نهيق حمار، يحتسي أبي جرعةً خمرٍ أخرى. يبتلع السائل ثم يعود ليحدّق في القدر الذي لم يتبقّ فيه سوى بقايا عظام طائرٍ ما تعذّر تحديد صنفه. شرعت أمي بغسل الأواني ومن خلفها حفنة من العظام وكتلة موت. كانت العظام قد

أُفْرغْتُ من محتواها حتّى بدت شفّافة.
باستثناء جناحٍ أخفاه أخي في جيبه
استمرّ أخي يداعبه ببطء تحت سطح المائدة.

في عتمة الممر

للقدر الكلمة الفصل

وأنت لا تصلح لشيء

على رسلك، أبي كان يحدثني دومًا بهذه النبوة.

تقسم أمي الخبز لجزأين، تبتسم وتقدم لسالي القطعة الأكبر.

عروسُ كالبَن

هناك أمورٌ يصعبُ التنبؤُ بها كالضباب
هناك أغنيةٌ تمدُّ لسانها من تحت معمل الجبن
«إنَّه هو، مجنون القرية كوكا».
الكلاب والجيفة بين شجر التوت الأسود الناضج
قلب العجل دافئ
وحصان برونزي اللون يعلك زيتوناً
خطاف وصليب في الخندق.

أهو أنتَ يا كوكا؟ حسبتك «حسيم». وحده يحضر في ساعة
متأخرة إلى معمل الجبن. نعم هو أنت. كعبا قدمي يتشجان
والعتمة تندفق في حنجرتي. البوابة تردد أغنيتها، كوكا يغلق
الباب ببطء. العتمة ملأت فضاء المعمل، استوطنت جسدي،
تضغط على حنجرتي وخيطُ نورٍ فضي يدخل من كوة المعمل
الصغيرة، لكنَّ الرجل الذي حضر قطع طيف النور، توقفه الأغنية.

كوكا هو عين الثعبان يا حبيبة

عين الثعبان أذن

- لم أرك منذ وقت طويل!

- أهذا أنتَ يا كوكا؟ هل حضرت من أجل الحليب؟ لقد أنهيت للتوّ حلب البقرة، عشرة لترات ونصف اللتر.

- ألا تزال بقرتكم على قيد الحياة؟ حسبتها ماتت قبل بضعة أشهر.

جسدي فراشة ليليّة، مثبتة بإبرٍ على جدار نظراته. عينان سوداوان كالزيتون. عينان بلون القطران، من دون جسد وحدقتين. عينان بلا جسد ولا أحرك ساكناً.

الثعبان جائع، أطعميه

اسقيه يا عروساً كاللبن.

يتحرّك الظلّ تجاهي ويغنّي بصوت خافت. ظهره يمنع الضوء عنّي والحليب يملأ القدر ويدور كموجات صغيرة بعد أن شربت منه بحفنتيّ يدي ولا تزال قطرات الحليب تسيل من مرفقيّ. خطوتان فقط ويسقط الظلّ فوقيّ، أتقدّم نحو الباب لكنّ الظلّ يعترض طريقيّ، أتوجّه نحو الغرب وأجده هناك أيضاً وعندها أشدّ ضفيريّتي.

- كوكا، غداً يزوّجونني هل ستحضر حفل الخطبة؟ أردّد حديثه السابق، ألا تزال بقرتكم على قيد الحياة؟ حسبتها ماتت قبل بضعة أشهر. لا أتوقّف عن الحديث. هذا ما يجب أن أفعله أن أستمّر بالحديث لمعتوه القرية لمنع الأفكار الجنونية من اقتحام رأسه. ما أقوم به مجرد محاولة لتأجيل أمرٍ محتوم، أوّجّل ما

سيحدث لا محالة. عامل الوقت وحده تأخر في معمل الألبان.

ثعبان وراتنج وكوكا

ثعبان وراتنج وكوكا

بدأت أستشعر أنفاسه، لقد شرب الحليب قبل أن أحضر. أهل القرية يرددون بأنه يدخل إلى حظائر البقر ويشرب الحليب مباشرة من ضروع البقر ويقولون أموراً أخرى لا أرغب بمعرفتها. كوكا اقترب منّي كثيراً، مدّ قامته فوقني كبرج صخري وأنا فراشة ليلية مثبتة بإبر على جدار طينيّ مصلوبةً بإبر نظراته. عيناه مظلمة فالفحم يضيء حين تضرم به النار فقط. عيناه تسودّ كأنّها مفقودة ولا إنسان من خلفها.

- كوكا، أرجوك اتركني.

اذهب لتلعب مع الأولاد في التلّ، رأيتهم هناك حين حضرت إلى المعمل، لا يزالون يمارسون لعبتهم المفضّلة. أمّا أنا فسأعود إلى البيت ولن أخبر أحداً بحضورك إلى المعمل.

كان عليّ أن لا أقول ذلك، سرعان ما أمسكني كوكا من خصري بيديه القويتين ليسقط كلانا عند أوعية الحليب المعدنيّة، تردّد صوت تدحرجها وارتطامها في المكان كالأجراس. أواني الحليب هدايا حفل الزفاف وثوبي يخوض في الحليب الممتزج بالطين. الأواني تدقّ على وقع الفارس. زن زن، وأسرع. زن زن زن زن.

إبتعدُ عني أيها المسخ.

يدُ كوكا تضغط فمي، يدُ كوكا باتت جزءاً لا يتجزأ من وجهي.
أتقبّل هذه اليد وهذا الجسم الغريب كجزءٍ مني. زن زن زن زن.
أصبحتُ خارج إطار هذه اللوحة. أراقب كل شيء بحياد. شعري
يسبح في بركة من الحليب الدافئ، نظري مثبت في ثقب صغير
في الجدار. الثقب يغيّر هيئته على وقع عدو الحصان. لم أر هذا
الثقب من قبل، لكنّه يسمح بنفاذ الضوء. الثقب في الجدار، نعم
أراه للمرّة الأولى. اعتباراً من اليوم أقرّ بوجود هذا الثقب لأنّه
محسوس وأراه. الثقب يؤلمني، يؤلمني جداً.

هل أنت عذراء؟

عذراء.

لا تبكي يا بكية بسبب الألم الذي تشعرين به، لنتركه هنا.
أسمع صوت أمي وصوت اندلاق حليب الحياة فوق ثوبي الأسود
ثمّ صمتت الأجراس. شبع الثعبان وأغلق عينيّ.

عين الثعبان هو كوكا يا حبيبتي

عين الثعبان خالية من الرطوبة

استعاد أنفاسه

وقف كوكا، ربط سرواله بالحبل، وجنته حمراء مشتعلة.

ابتسم لي ونظر إليّ كأنّه يراني للمرّة الأولى. مرحباً يا بكية.

هل حضرت للتوّ. ألمس البقعة المبتلّة هناك، يداي ملوّثة بالدمّ.

هل أنتِ عذراء يا بكيّة؟

عذراء.

يا ابن أبيك.

كم لترًا من الحليب قدّمت البقرة نهار اليوم؟ يسأل كوكا ثمّ يبدأ بركل حصاة صغيرة. يلعب الحصاة يتقاذفها كأنّها كرة. يضحك ويركل كالأطفال.

شابٌ صغيرٌ لا يستحقّ عشرين ثورًا، هذا مهري كعروس. وهو أصبح رجلًا بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى. هل سيصدّقون روايتي أم روايته؟ ما رأيكم؟ لا حاجة لأن أخبر أحدًا بشيءٍ من هذه التفاصيل. أقف على قدمي ثمّ أنحني فوق الحليب، أغسل وجهي به، وأسكبه في بقعة الدم، ينساب سائلٌ وردّي على فخذي. أشدّ ضفيري وأردّ شعري إلى الخلف.

أعرفُ ما يتوجّب عليّ أن أفعله هذا المساء

يراني الولد ويتوقّف عن ركل الحصاة

كم أنتِ جميلة، أتريدين أن أرافقكِ إلى البيت، لقد حلّت العتمة؟

لا يا كوكا سأعود وحدي إلى البيت

أعرف الطريق إلى البيت حتى في العتمة.

في أحضان النهر

أستمع إليه، صوتٌ ما يهمس لي:

اغتسلي، اشربي الماء من مرفقيك، اسكبي ثلاث حفنات من الماء في صدرك، بلّي مريولك وغطّي وجهك.

أرى ثوبَ وحذاء جدّتي، شهود العرس يحيون حفل الزفاف، نسير في الطريق الأسود، الضباب يختلط بعتمة الطريق، شخصان من أهل الجبال يمرّون بمحاذاتنا، يحملون أكياسًا على ظهورهم. لا بدّ أنّهم يحملون جثمانين لرجل وامرأة. لا يلقون التحية ويركّزون أنظارهم في قمم أحذيتهم. حذائي يعكس أشعة زرقاء، حذائي اللامع البرّاق. جدّتي من جانبي وفي الجانب الآخر نيمانيا، قبيح نحيف وأحذب ومن حولنا يحملون البنادق والمسدّسات، أصوات زماميرهم تصل بعيدًا إلى الورا. الملاعين وأصوات الطبول تنظّم وقع الخطوات. من الخلف يقود والدي وأخي الخيل سيرًا على الأقدام وأمّي إلى جانبهما. أمّي تبكي وثلة من النساء الغريبات المتّشحات بالسواد يسرن من خلفهما ويبكين أيضًا. يشددن شعورهنّ ويصرخن كآبناء أوى.

هل أنا على وشك الزواج أم الدفن؟ أدخل غرفة حبيبي نيمانيا. أين أنت يا جدّتي، هل يمكنني الاستلقاء بجانبك قليلًا؟ أستلقي

بحانب حبيبي، جميل في عتمة الغرفة. وجهه يختفي ثم يظهر. أهذه أنتِ؟ يهمس نيمانيا، أحبكِ! لكن هذه أنا.. بكية. كيف لك أن تحبني وأنت لا تعرفني؟ هذا ما ينص عليه التشريع، اخلي ثوبك. تخلع بكية ثوبها والجميع ينتظرون حابسين أنفاسهم أمام البيت. جسدانا كالحجارة جامدة لا تتحرك. اخلي حذاءك وتخلعه العروس. أحدهم يصيح: العروس ليست عذراء والملاءة بيضاء بلا دماء ترفرف من النافذة، العروس ليست عذراء. ستقضي شابة، هي ليست نظيفة وأخوها يبكي ويصيح: بكية يا اختي. يلطم والدي فم أخي بمؤخرة يده.

يصيح بي: كان عليك أن تجلسي على مؤخرتك بدلاً من رفعها. يتناول نيمانيا الرصاصة الذي وضعها أبي في جهاز العروس قبل أن يرسلني إلى بيت زوجي. كل شيء يسير حسب التشريع. إذا ثبت أن العروس ليست نظيفة، تُقتل في هذه الحالة على يد العريس برصاصة والدها. الأمور تسير حسب التشريع، الأمور تسير حسب التشريع. النساء المتشحات بالسواد يلطن وجوهن ويشدن شعور رؤوسهن ويخدشن وجوهن بأصابع أظافرهن. يرغبن بانتزاع الأقنعة كافة واستبدال وجوهن وحناجرهن المبحوحة ومناديلهن المبتلة.

لا أسمع أصوات أجراس الماشية، لا أسمعها. يدك ذهبية يا نيمانيا، أطلق النار يا ابني. يصوب نيمانيا البندقية نحو صدري ثم يطلق النار. لا أشعر بشيء، لا أزال واقفة على قدمي وعلى ثوبي

نقطة حمراء.

أتراني أموت أم أولد!

انتهى كل شيء الآن، يخرج نيمانيا أمام البيت والحضور
يصفق له بصمت، ثم يدخل مجنون القرية إلى غرفتي. أهذا أنت
يا كوكا. نعم هذا أنا. يجيب ويحملني بين يديه ثم يُخرجني عبر
الباب. الآن استعدت قدرتي على الاستماع لأجراس المشية، تدخل
السكينة لروحي. كوكا يؤرجحني تجاه أحضان النهر. الأجراس
توقفت، لم تعد تدق احتفاءً بحفل الزفاف وتبشر بموتٍ عاجل.

اغتسلي، اشربي الماء من مرفقيك، اسكبي ثلاث حفنات من
الماء على صدرك، بللي مريولك وغطي وجهك.

أستيقظ.

أنهض من سريري، أنحني وأتناول جهاز عرسي من تحت
السرير. الرصاصة هناك فوق الثوب الأزرق. غداً يزوجونني.
أتناول الرصاصة وأمضي إلى الرواق، أضع الرصاصة في جيب
معطف والدي ثم أوقظه من النوم: أبي، أريد أن أصبح مرابطة.
هل توافق على قراري؟ يجيب أبي على الفور: هل أنت نظيفة؟
نعم أنا نظيفة يا أبي.

أيقظي أمك وسالي، سنلغي العرس في الغد.

الشارة السوداء

منذ ولادتي
وأنا أتوق لأن تلبسني أمي
ثياباً زرقاء دون غيرها
وإذا ما ألبستني ملابس غير زرقاء
أشعر بالبكاء
لأنني سمعت وأنا في رحمها
سمعت بعض الأمور
على سبيل المثال
أبي يريد ولدًا يخلفه.

- بكية يا ابنتي، ماذا دهاك؟ لقد قضيت علينا. لماذا مرابطة؟

- هذا ما أريده يا أمي.

- عليك أن تدركي أن شرف العريس قد تلوّث، ستقحمينا في
عداوة دموية. ألم نقدّم لك كل ما تشتهين؟ ماذا أصابك يا ابنتي؟
عندها صاح أبي غاضباً.

- احرصى أيتها الشمطاء الملعونة، هذه إرادتها. يمكنها حسب التشريع أن تعدل عن الزفاف لتصبح مرابطة. لن تكون الأولى ولا الأخيرة في هذه القرية. سنحافظ على شرف العائلة حتى إن تطلب ذلك سفك الدماء. التشريع فوق الاعتبارات كافة وأهلاً بالقدر.

اختاري يا بكية، لمن تقدمين الشارة السوداء لأبيك أم لأخيك؟
هل هناك من يشكك بعدم إمكانية ملامسة الموت!

يمكنك أن تضعي الشارة على يد المحكوم بالموت، الشارة السوداء مثبتة على نصف أيدي أهالي القرية. على يد كل من تورط بخلاف دموي، على يد كل من هو مرشح للموت، على يد كل مرشح للقتل والانتقام. يقضي التشريع على نيمانيا قتل أحد رجال العائلة ليغسل شرفه المهدور.

- اختاري يا ابنتي بكية، من يحمل الشارة السوداء، أنا أم أخوك؟

أخي يبكي من دون دموع وأبي يتنفس بثقل. أخيراً طالته يد التشريع العريقة، ملأ صدره بأعتى قوانينه، قانون الشرف يرفع أبي يده اليسرى وأمّي تبكي. أراقب يده المرفوعة، لو يقدر أبي أن يرفع كل جسده كرمى لشرفي. لعله لا يموت بداء ما أو في أثناء نومه. لعله يموت بموضع إصبعين وسط جبينه. حركة واحدة من يدي وينهار المشهد.

اختاري يا بكية. الهواء يصبح أكثر غلاظة والسقف يهبط
بحدّة

لم أتوقّع أن تأخذ الأمور هذا المنحى

الثعبان جائع، أطعميه

اسقيه يا عروساً نظيفة كاللبن.

ألواح السقف الغليظة تقترب أكثر وأكثر من رأسيهما. أمسكُ
يد سالي وأضع الشارة السوداء على ذراعه. بكت أمي كما تبكي
الأمّهات حين يعرفن بأنّ ابنهنّ قد قضى في جبهة القتال. تنوّرتها
الطويلة تمسح أرض الغرفة وتتنثني خلف الباب دخاناً أسود.
ارتفع السقف إلى الأعلى ثانية وأخذ الهواء يستعيد شفافيته ثمّ
انتظمت أنفاسنا.

سالي لا يتحرّك، لا يرتجف ولا يبكي

سالي أصبح في عداد الأموات لهذا توقّفت أنفاسه.

الأمر مرهون بإرادتك أن تحفظ رجولتك أو تهدرها. قال أبي
ثمّ قبّل وجنتي أخي سالي وغادر الغرفة.

أتريد ابناً لك يا موراش! خذُ ابناً محكوماً بالموت. أمي تولول
وتبكي في البدروم. يخترق بكأؤها كلّ أنحاء البيت ثمّ يرتفع عبر
ألواح السقف العليا، تزيح قطع حجارة القرميد فوق السطح،
إحداها يتحطّم فوق الإسمنت. تقفز القطة فوق شجرة الشمشار

دائمة الخضرة، ينتقل صوت بكاء والدتي فوق أسطح بيوت
القرية بحثاً عن نافذة مشرعة.

المجوفات

أبي يحترم ويجلّ التشريع أكثر منّي ومن أمّي ومن أخي ومن الحَمَامِ أيضاً وكلّ تصرّفاته وممارساته تؤدّي لغلبة رأيه حسب القوانين والتشريع. حين حضر إلى البيت ليخبرنا أنّ أخي قد هرب كان قد وضع الشارة السوداء على ذراعه. لا أزال أذكر عينيه اللتين كانتا تفيضان فخرًا وحزنًا. عايشت أمّي خلال يومين فقط موت أخي وموت أبي وموتي أنا، لكن لم يُعرها أيّ منّا أدنى انتباه.

الظلّ هو الظلّ، تلحظه حينما ترغب أن تختفي تحته أو حينما تشعر بأنّه غير مرغوب.

سأختفي.

ربّما هذا ما قاله أخي وقد أكون سمعته يقول ذلك حين وضعتُ الشارة السوداء على ذراعه. لا أذكر الكثير في تلك اللحظة، وقد أكون أنا وحدي التي سمعته ينطق بذلك من دون حتّى أن يفتح فمه. سمعته يعلن إرادته قبل حتّى أن يتعلّم نطق كلمة «بابا» للمرّة الأولى.

عندما هرب أخي استمرّت أمّي بوضع أربع شوك للطعام بدلاً من ثلاث.

العادة حالة قاسية ومرعبة.

جيوب سالي دومًا ملأى ومتخمة، تغسل أمي الثياب فوق حوض المغسلة وتصمت. حين تدرك إحدى الأمهات الواقع المرّوع تصمت، وحين تصمت تنهمك بالغسيل.

جلس الصمتُ على كرسي أخي، الحقيقة أنه يتواجد هناك طوال الوقت. يجلس في حضنه كل مرة يتناول خلالها الطعام وأحيانًا يضغط على حنجرته ولا يتمكن أخي من ابتلاع اللقمة.

- يلعن أبو أمك الكاراباشية، أكلمي الحياكة وإياكِ أن تطأ قدمك القذرة بلاط البيت. أهالي القرية يردّون «ما هذا الابن الدنيء الذي خلّفته؟ عارض أزياء من بوخنفالد». أحيانًا يبلغ به الأسى ذروته ويبقى إلى المائدة بعد انصرافنا من دون أن يتناول لقمة واحدة وجيوب أخي سالي دومًا متخمة.

سالي غير موجود لقد هرب.

أفادت الشارة السوداء المثبتة على ذراع أبي وهو شعَرَ بثقل الفخر الذي ناله بعد أن أصبح طرفًا في نزاع ثأر دموي وأدرك حقيقة أنه لن يموت بداءٍ أو بأثر الشيخوخة. أخذت أقدامه تغوص في أرض المكان بجشم وتراه يردّد: هذا شرفٌ كبير لي، سأذهب لأصنع بيتًا جديدًا للحمام، أكبر من البيت السابق، سأصنع أكبر بيتٍ للحمام في كل أنحاء ألبانيا. عضّت ألواح الخشب أسنانها بين يدي والدي والدود يتفرقع ويبحث عن مخرج من الألواح ويتساءل والدي «كيف هرب ابني سالي هذا، كيف فعلها وهرب؟». وفي

الأثناء، تغلق أمي فمها بيدها وتشدّ بأقصى ما تملك من قوّة.
أرى أرنبًا يقفز من بين الأعشاب وأنا أقف عند حافة النافذة،
أدعو الله أن لا يراه والدي. لكنّه سرعان ما يصيح:
- هاتِ البندقية يا امرأة.

نجتمع أنا وأبي وأمي حول المائدة. خبزٌ وأرنبٌ مشويٌّ ونبيدٌ
وأربع شوك.

العادة حالة قاسية ومرعبة.

كرسيّ سالي فارغ وعليه ركنٌ والدي البندقية. أحدق في
تجويفين في أرضية الغرفة على هيئة حذاءين. استقرت في
أحدها ذبابة..
ثمّ طارت.

هدنة

أخبر الرسلُ أهل نيمانيا بأنَّ العرس قد ألغي، هم بدورهم أرسلوا من يُعلم أهل القرية بأنَّ أخ نيمانيا سينتقم للإهانة التي تعرّض لها أخوه.

تجمّعت عائلة نيمانيا وأقربوا بأنَّ أوّل من يرفع يده ينال حقّ الانتقام لنيمانيا وعلى الفور رفع أخوه يده حسب نصوص التشريع في ألبانيا. كانت تلك الفترة الزمنية هي الأخطر لأنّ والدي لم ينل من عائلة غريمه الهدنة المتعارف عليها، ويحقّ في هذه الحالة لعائلة نيمانيا إطلاق النار تجاه أيّ عضو في العائلة.

- أوصدوا الأبواب، إياكم أن تغادروا البيت طوال اليوم، أطعمتُ الحيوانات ولن تموت جوعاً. سأرسل برينغ غداً صباحاً للتهادن مع عائلة نيمانيا. الهدنة المؤقتة في ألبانيا تستمرّ لمدة 24 ساعة فقط، ولا يحقّ لصاحب الثأر في ألبانيا الاعتداء على الضحية طوال هذه الفترة، وبعدها يُهدر دُمّ الضحية على الفور. طلب برينغ هدنة قصيرة وحصل عليها، وفي اليوم التالي منح أهل القرية لوالدي هدنة طويلة لشهر كامل. تمنح هذه الهدنة عادة بعد دفن القتيل من العائلة المستحقّة للثأر. نحن لم نقتل أياً من عائلة نيمانيا ولم تشهد القرية جنازة ودفناً لذا استحقّ والدي هدنة طويلة. ثار الدم في هذه الأقاليم مرعب وشديد التعقيد، وقد

استمرت العائلات بالقتل والانتقام لأبنائها حتى الجيل العاشر.
نشر الرسلُ خبر الهدنة الطويلة في أنحاء القرية كافة.

يجب على القرية أن تعرف كلَّ شيء.

يجب دومًا أن تعرف كلَّ ما يطرأ ويحدث في بيتِ الحمام،
الأعين تنظر في كلِّ الاتجاهات.

منحوا موراش هدنة طويلة، هدنة طويلة لعمدة القرية السابق.
منحوه الهدنة من أجل ابنته بكية التي أفضلت مشروع زواجها من
نيمانيا لأنها فضلت أن تصبح مرابطة. بدأت هدنة موراش وبعد
شهر سيمضي إلى الأبدية. موراش على موعد مع الرحيل. هو
أصبح في عداد الراحلين. الأمر الوحيد الذي رده أبي حين أخبره
برينغ بقرار الهدنة الطويلة:

- أريد أن أصنع بيتًا جديدًا للحمام. أكبر من البيت الحالي،
سأصنع أكبر بيتٍ للحمام في كلِّ ألبانيا. جميع المحكومين
يقومون بتنفيذ أعمال مشابهة أو يعمدون لتصليح ما أمكن في
البيت. وربما يتزوجون إذا كانوا عزبًا وحيدين أو يصلحون الأرض
وقد يتعاطون الخمر طوال الوقت منذ الصباح وحتى المساء، وفي
الأثناء يشتمون ويقتلون الذباب المتجمّع فوق الموائد.

بات بوسع والدي البدء بصناعة بيت الحمام. وأعني بذلك
انشغاله طوال النهار بنشر وقياس ألواح الخشب وتثبيتها
بالمسامير وترتيب قطع القرميد في أرضية البيت ودهن بيتِ

الطيور، كما ندرّ مشاركته معنا لتناول طعام العشاء حول المائدة. لم تعد حياة والدي منقسمة لما قبل تولّيه لمنصب العمدة وما بعد ذلك، لكنّها تجزّأت لما قبل الهدنة وما بعدها، أمّا الحياة بالنسبة له فباتت مكرّسة لتصميم وبناء بيت الحمام.

بعد إتمام عملية القتل يتوجّب على القاتل أن يقدّم ضريبة الدّم بقيمة 500 ليك إلى قلعة إلباسان. عليه أن يسير طوال ثلاثة أيام وأن ينتظر الوقت المطلوب وقد يمتدّ حتى الأسبوع لتسليم الضريبة. هنا حيث يقطن الأمير كابيدان الذي يمتلك صلاحيات غير محدودة وفقاً للتشريع من ضمنها استلام ضريبة الدّم. فئات المجتمع كافّة تخضع لسلطته المطلقة وهو فوق القانون يا سيدتي الصّحفية. تسقط الحكومات وتأتي أخرى لكنّ التشريع يبقى برونزيًا وليس مصادفة أن يحضر البعض من الحقبة البرونزية. أشعر بالفخر لأنّي أعيش في هذه الأصقاع، أرجوك لا تسأليني عن الوحدة، الحرّيّة أهمّ من ذلك بكثير. إذا ارتبطت القضية بالتشريع لا يعد للأب والأخ أهمية. قوانين التشريع في ألبانيا فوق كلّ الاعتبارات بل وأهمّ من المرتفعات الشاهقة هناك. شرف الرجولة وحده القادر على ضمان وحماية شرف العائلة.

أقدم مرّة أحد الجبناء على هدر حرمة الهدنة المعلنة وقتل غريمه خلال فترة السماح. غيبي، هدر حرمة القرية بأكملها. حرقوا بيته وأخرجوا حجرًا من أسسه الأربعة وثبّتوه فوقه وقطّعوه إربًا دون أن يجروا أن ينتقم لدمه أحد. لكنّي على قناعة بأنّ تبرؤ

العائلة من أحد أعضائها أشدّ وقعاً وإيلاماً من الموت. أتريدون أن تعرفي ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنّي امتنعت عن وضع الشارة السوداء على ذراع أخي؟ كانوا على أيّ حال سيقتلون أبي وهذا يتطلب من أخي الانتقام لدمه المهدور. أتعرفين يا سيدتي، أخي غير مؤهل للأخذ بالثأر. صوّب يا سالي، لكن من دون طائل. عندها وحسب التشريع كان عليّ وعلى والدتي أن ننبذ أخي من العائلة سالي ونتبرأ منه، ونقدّم له القهوة باليد اليسرى راكعين تحت مستوى الركبة. كان سيفقد الحقّ بالزواج واستصلاح أراضيه الزراعية، وسيقدم أهل القرية على اجتثاث أشجار حديقتنا. كان سيفقد الحقّ بتناول الطعام معنا والتشريع يفرض عليّ أيضاً بصفتي كبير العائلة أن أبقيه أسير بيته حتى يوافق على الانتقام من قاتل والدي كضريبة دم لا تسقط أبداً. لا، أنا لا أقدر على تحمّل كل ذلك، أن أعذب أخي وهو على علم بذلك ويدرك جيّداً أنّ الأقوياء وحدهم قادرون على البقاء في ظلّ أحكام التشريع وهو ليس ضمن هذه القائمة. البقاء في خدمة التشريع يحتاج لرجولة، والمعنيّ بذلك وحده يمتلك الإرادة لتنفيذ هذه الغاية.

«سالي أنت وحدك تمتلك الإرادة للحفاظ على رجولتك وتمتلك الإرادة أيضاً لتلويثها». قال والدي ثمّ قبّل وجنتيه وغادر الغرفة.

«سأصنع أكبر بيتٍ للحمام في القرية». خلال الأيام القليلة المتبقية من الهدنة أخذ يعمل والدي لوقتٍ متأخّر من الليل والأجل يقترب مع كلّ لحظة ولديه الكثير لينجزه. معنوه القرية المقيم

في منطقة «كوزارنيك» القريبة كان يؤكّد أنّ موراش ينام في بيت الحمام وزوجته تولولُ وتعوي كابين أوى في البيت كلّ مساء. المعتوه يرى والدي كلّ صباح يغادر بيت الحمام ويتّجه في العتمة إلى كوزارنيك وموراش لا يراه بل لا يرى شيئاً. لا شيء سوى بيت الحمام. يدخل والدي إلى الحانة وعندها تسمع صوت انغلاق المحابس في وجوه أصدقائه المقربين.

النوح

خلال الأيام القليلة من الهدنة كانت أمي تنام وحيدة وأسمعها
في ساعات المساء تنوح وتهذي بأسماء الحَمَام في بيتنا.

«أين أنتَ يا ميخائيل، أنقذنا نحن الطهورين».

ثمّ أسمع اسم والدي وبعد ذلك تصمت.

اليأمور

رفعت بندقيتي وأطلقت النار تجاه رأس اليأمور. سقط
الجسد، سُمع صوت ارتطامه بالعشب المبتلّ وعيناه الكبيرتان
تحدّقان بي، كان عليّ أن لا أفعل ذلك.

رائع يا بكية، لقد أصبت يأمورًا جميل «اليأمور من فئة
الأيائل». يقترب والدي منّي ويلقي نظرة إلى الأيل الذي أرديته
ولا يزال يتحرّك حيًّا ثمّ ينظر إليّ ويصفعني بقوة، حرقت يده
وجنتي الباردة، أخذ بندقيتي ودخل العربة ولم يحدثني طوال
أسبوعٍ بأكمله.

- كم مرّة أخبرتكَ أنّ اصطياد الأيائل والغزلان ممنوع، هذه
حيوانات نبيلة وقتلها بمنزلة جريمة كبيرة.

- حسنًا يا أبي، وما الفرق ما بين اصطياد الأيائل والأرانب؟
لماذا يُسمح باصطياد الأرانب ويُحظر قتل الغزلان والأيائل
واليأمور؟

- هي قوانين الطبيعة، لا تجادلي نهائيًّا، اسكبي الوعاء الأخير واصمتي
نهائيًّا. أفرغتُ الوعاء الأخير المليء بزيوت الآليات المستهلكة في الحرج
الكبير. هذا ما كنّا نقوم به أنا والوالدي، أذكر أنّ أحد التجار قد باعنا أوعية
كبيرة من الزيوت المستهلكة سكبناها في الأخاديد الضحلة للغابة،

وكانت الخنازير البرية تستحمّ بها ما سهّل علينا تتبّع أثرها، ومعرفة أماكن تواجدها وإذا كانت قد توجّهت نحو عناقيد الذرة عند السدّ أو تجاه التلّ المؤدّي لمنطقة برغانيش. بعض هذه الخنازير كان يندفع إلى حقل برسيم العمّ ستيشي وسرعان ما ينادي صائحًا: تعال يا موراش، احضر بندقيتك لقد هاجمت البرسيم ثانية، اللعنة على هذه الخنازير. سأحضر على الفور. وينتظر في الكمين طوال المساء مختبئًا خلف أكمة العشب أو في طرف الطريق الخفيّة. عند الغروب تصبح الرؤية صعبة للغاية، لا شيء سوى الضباب وقلاع الملعونين و صليب الكنيسة الخشبية المائل إلى جانبه بسبب قوّة الرياح. يقف من دون حركة وعند الفجر تظهر من الضباب بقعة داكنة كبيرة. يرفع بندقيته ويصوّب نحو رأس والدي قائلاً: مع تحيات أخي. يُسمع صوت ارتطام الجسد الساخن فوق الأعشاب. عيناه الكبيرتان تحدّقان فيه، عينا والدي الكبيرة تحدّقان بعيني أخ نيمانيا. رائع يا بكّيّة، لقد أحسنت إصابة اليأمور.

تظهرُ عند الفجرِ من الضبابِ بقعةٌ داكنةٌ كبيرة، انتظرَ في كمينه طوال الليل ليجهز عليه. كان يفرك يديه كي لا تتجمّد ويعلك قطعة شحم وثوم، احتسى العرق وانتظر عيني والدي الكبيرة لتحدّقا في عيني قاتله، انتظر ليقول له شيئاً ما قبل أن يقتله حسب قوانين التشريع. قبل أن تجهز على الشخص المحكوم بالموت يجبُ على القاتل أن يحدّثه أن ينطق ببضع كلمات. أيّ شيء، مثل: يسعدني لقاؤك يا موراش، أخي يبلغك خالص التحيّة.

أبي، أريد أن أصبح مرابطة.

الرسالة الثانية

مرحبًا يا بكيّة

لا أتلقّى أيّ ردود منك. أرجو أن تكوني بخير. ذهبت للتوّ إلى البريد وأكّدوا لي هناك بأنك قد استلمت رسالتي. هل أصابك الذعر. هذا متوقّع ولذا لم تردّي على خطابي. حسنًا، يمكنك التزام الصمت لكّني سأكتب لك. أحتاج للكتابة لأنني صمتّ طويلًا، لديّ الكثير من الأمور التي تقلق كياني وتقف شوكة في حلقي، تجعلني شريكًا في كلّ ما حدث، شريكًا في عمليات القتل والانتقام بما في ذلك قتلك أنت.

بالأمس تناولت وجبة بالأرناب في المطعم القريب، لكّني على ثقة بأنّها ليست ألدّ من تلك التي تعدّها أمي. لذا تذكّرت تلك الحادثة التي تراودني بين الحين والآخر. أتذكرين حين عشر مورايش على الأرناب البري في حظيرة نورا؟ لا أحد عرف كيف عبر إلى هناك. لكن هذا غير مهمّ أبدًا، يمكن توقّع كلّ شيء من مورايش وأعتقد بأنّه عشر على الأرناب في الغابة القريبة ووضعه عند نورا ليداعبنا ويمتحننا، فهو يحبّ هذا النمط من العبثيّة، أن نتواجه أنا وأنت ودومًا أنتِ الرابحة في أيّ نزال. قدرتك على الإصابة الدقيقة بالبنديقة تتوافق مع غريزتك وتفوق قدراتي الطبيعية بكثير. «دثروه بجورب ثمّ وضعوه بالقرب من الموقد ليتندفأ فقد كاد أن يتجمّد من شدّة البرد». أتذكرين؟ هذا ما قاله مورايش وأنا لا أحاول الحكم

عليه وعلى نوابه بإنقاذ الأرنب، لكنك أنت أيضاً تعرفين بأنه على الرغم من طبيته فهو رجل قاس في الوقت نفسه. لذا، أتوقع كل شيء منه ومنك أيضاً، فأنت عصية على القراءة والاستقراء. الآن فقط عرفت صعوبة تنبؤ خطواتك المقبلة لكنني آنذاك كنت لا أزال صغيراً وأثق بك ثقة عمياء. أتذكرين مصير الأرنب؟ ما زلت أتساءل عن السبب الذي دفعك لتخبريه بأنني قد أجهزت على الأرنب. ما زلت أتذكر جيداً حين طلبت مني أمي أن أساعدها بتقوية الحليب وحين عدت ناداني موراش وتعرفين ما حدث بعد ذلك، لم أتمكن من النوم على ظهري ليومين. بالأمس جفاني النوم أيضاً ولم تغمض لي عين، ليس بسبب الآلام التي عانيتها آنذاك بعد أن أبحرني موراش ضرباً بحزامه بل لأنني أطلت التفكير طوال الليل. أردت أن أعرف ما دفعك لتشهدي زوراً وتدعين قتلي للأرنب؟ لماذا فعلت ذلك؟ لم أتمكن من العثور على إجابة شافية. لكنني أعتقد بأن رغبتك فاقت مجرد أن تكوني «ابن أبيها» بل أكثر من ذلك بكثير. أردت أن تكوني الابن الذي أراد أن ينقذ الأرنب من اليدين القاصرتين للولد. نعم، كنت أنت المفضلة والمحبة لموراش. هو يمتلك ابناً واحداً فقط والمعني بذلك أنت. لكن الأمور ليست بهذه البساطة يا أختي. وسأبذل جهدي لأقنعك بأن كل ما قمت به من إنجازات لتصبحي «ابن أبوها» ذهب في مهبّ الريح وأنّ قوانين التشريع مجرد وهم يدفع الإنسان للشعور بالأمان لكنّه يحرمه في الوقت نفسه من الحرية.

أفكر طوال هذه الأيام بالغفران، أعتقد بأننا سنجد السكينة لأرواحنا حين نغفر كل خطايانا. لكن قبل ذلك يجب معرفة الحقيقة: ما الذي

حدث في معمل الأجبان في تلك الليلة التي تأخّرت فيها عن العودة
إلى البيت؟

بانتظار ردّك
سالي 19 سبتمبر 2017
مدينة صوفيا - بلغاريا

الكذبة دودة

كذب

أتصدّقونني أنا أم تصدّقون هذه الرسالة؟ قلت ما قلت وحدث ما لم يكن في الحساب.

لم أتوقّع أن تتطوّر الأمور بهذه الطريقة، كلّ ما أردته هو مساعدته. أعتقدون حقًا بأنّي كاذبة؟ معدتي تؤلمني، ناولوني تلك العبوة البنيّة المتواجدة بالقرب من النافذة، هو الذي قتله، الكذبة بحدّ ذاتها دودة.

«ضعوه يا أولاد في جورب وعلّقوه بالقرب من المدفأة لتعود الحياة لأوصاله يكاد الأرنب يتجمّد». يدخل والذي قابضًا على شيء ما في حفنة يده ويصيح. «بسرعة، لديّ عمل عليّ أن أنجزه». نمّد أنا وسالي أيدينا تجاه والذي ويصيح كلانا «هاتِه يا والدي». يناولني أبي ما بيده، أشعر بجسده الصغير الحارّ.

«ضعوه في جورب». يصيح والدي.

أسيرُ بخطىً بطيئةً تجاه المدفأة وأخي يركض إلى جانبي هامسًا «دعيني ألمسه». يلمسه ويمسّد رأسه وجسده، يبتسم له ويحدّثه كأنّه كيانٌ حيّ. يسأله إذا كان لديه أصدقاء ثمّ يداعبه مجددًا. أطلب منه أن يحضر جوربًا بسرعة. يحضر أخي جوربًا

رمادياً كبيراً من الصوف رقعت والدتي كعبه بقماش أحمر اللون. وضعنا الأرنب في الجورب ثم طلبت أمي من سالي مساعدتها بتنقية الحليب. صاح سالي «لماذا الآن يا أمي؟» والدتي ترفض الانتظار وتطلب منه الحضور فوراً، وقبل أن يغادر يلقي نظرة على الأرنب قبل أن يختفي في شق الباب. أمسك الجورب بكلتا يدي، أشعر بالمدفأة تلسعهما بحرارتها. استيقظ أيها الأرنب، يداي تحترق، المدفأة ملتهبة والأرنب بين يدي. استيقظ يا أرنب. جسد الأرنب لم يعد بارداً، جسد الأرنب ساخن للغاية.

أخي هو المذنب. الكذبة كأنها دودة.

يسقط الجورب على الأرض، أنحني فوقه، أرفعه بين يدي وأقف، لكن الأرنب ساكن لا يتحرك. يدخل أخي سالي، الأرنب مات، أنحني ثانية وأعيده إلى أرض الغرفة ثم أف، يدخل والدي، الأرنب، المدفأة، من القاتل؟

سالي قتل الأرنب. الكذبة كأنها دودة.

أنحني، أتناول الأرنب الميت وأقدمه لأبي وأخبره أن سالي قتله، سالي قتله، سالي خنقه ثم رطمه بالمدفأة، معاملته للأرنب كانت قاسية للغاية. قال سالي بأن الأرنب ليست حرّة كالبشر ويجب أن تُقتل وتؤكل.

بكي موراش من شدة الفرح ثم أمسك وجه سالي وقبّل فمه بقوة ورفع فوق كتفيه. علقت أمي زهرة بتلة خلف أذنه. وقف

موراش على قدميه وأمِّي تبكي وتلمس قدمي أخي سالي ثم انطلق أبي حافي القدمين في طريق القرية السوداء حاملاً سالي على كتفيه صائلاً:

- ابني سالي قتل الأرنب، ابني سالي قتل الأرنب، الصغير سالي رجل حقيقي. إنه ابن أبيه، قتل الأرنب بيديه الصغيرتين وركله بقدمه هذه. قبلوا قدميه.

سار أهالي القرية خلفهما يقبلون قدم سالي، القرية منتشية، القرية تحتفل وتقذف الخرق البيضاء تجاههما، يرمونها في أي موقع يمرّون به حتى ابيضت الطريق وأهل القرية يتعانقون ويبيكون من شدة الفرح والتأثر. يعرض أحدهم بندقية لسالي وآخر يقدم ذخيرتها من الرصاص متمنين للصغير الصحة والعمر المديد ويردد موراش متمنياً أن ترديه بندقية. الكذبة كأنها دودة، كان من المفروض أن يحدث كل هذا، لكن الواقع شاء غير ذلك.

«أنت الذي قتل الأرنب، لعنة الله على أمك». نزع أبي حزامه وصاح به «تعال لأعلمك كيف تقتل صغار الحيوانات، ستحرم من تناول العشاء هذه الليلة، اذهب إلى غرفتك». شيء ما يختلج في عتمة الحديقة. في اليوم التالي التزم أخي الصمت ولم يتفوه بكلمة واحدة، وفي لحظة ما شعرت كأنني أحلم ولم يحدث شيء فقد سارت الأمور كالمعتاد وتوجّهنا مع أبي للصيد. جهّز سالي الحقائق ووضع في حقيبة والدي قطعتي خبز وبعض اللحم المدهن وبصلاً وماء. انتظرنا في الكمين طويلاً دون أن يظهر

صيد. صممتنا طوال تلك الفترة وأخيرًا قال أبي:

الأرنب كان سيموت على أيّ حال.

لا يمكن لصغار الأرنب البرية أن تعيش وتتأقلم مع صغار الأرنب الداجنة. لا أدري لماذا، لكنها قوانين الطبيعة.

لماذا أحضرته إلى البيت ما دمت على بيّنة من موته؟

دعونا نعود إلى البيت، ستهطل الأمطار قريبًا.

الرسالة الثالثة

مرحبا يا بكيّة

أرجو أن لا تردّي على رسالتي هذه، الأمر غير مرتبط بمكروه حدث لك لكنّهم أخبروني في مركز البريد بأنك قد استلمت خطابي الثاني. أفكر جدّياً بالتوقّف عن مراسلتك ما دمت لا أتلقى أيّ ردّ من طرفك.. هناك العديد من الأسئلة التي تبحث عن مخرج من محيط رأسي. هل سأتمكّن من رؤيتك يوماً ما يا تُرى؟ هل أنتِ على قيد الحياة؟ أختي الحبيبة، أحاول جاهداً أن أقنع نفسي بأنك بخير وأنك ستحضرين لطرفي ذات يوم لتتمكّني من رؤية عالم آخر خالٍ من قوانين التشريع.

حين وصلتُ إلى صوفيا كنت أمتلك بلورتين فقط وبنطالاً وحذاء. أنتِ تعرفين كم أحبّ الرقص فوق بلاط المنزل في الوقت الذي كان يشكك أقراني برجولتي ويرجمونني بالحصى. لن أخبرك كيف عبرت الحدود، تعرّضت للضرب والسطو على الحدود الصربية، سلبوني كلّ ما أملك من النقود. حين وصلت إلى صوفيا سألت عن الشارع المركزي في العاصمة. ذهبت إلى هناك ووضعت فوق البلاط منديل أمّي الأحمر، لم أمتلك شيئاً سوى هذا المنديل وأخذت أرقص. لم يرجمني أحد بالحجارة والحصى بل توقّفوا لمشاهدة رقصاتي وتركوا لي بعض المال. لا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا أرقص، أخيراً توقّفت لأريح قدميّ وجسدي

قبلًا. شعرت بأنّي أرقص وأنا في الوقت نفسه ثم استيقظت وأحد المارة يرشق الماء على وجهي. رجل أنيق شعره فضيّ يمسك رأسي من الخلف ويمسح وجهي بالماء. تبين لي لاحقًا أنّه أستاذ في فنون الرقص الحديث ويعمل في إحدى جامعات صوفيا. أخبرني بأنّه لم يشاهد أحدًا يرقص بهذه الطريقة منذ زمن بعيد. تفاهمنا باللغة الإنجليزية وأنت تعرفين بأنّي قد تعلمت بعض الكلمات من التلفاز. أبدى رغبته بانضمامي لمدرسة الرقص التي يديرها لمساعدته بتدريب الطلاب الجامعيين. أخبرني بأنّي أمتلك «روحًا» ثم فهمت ما كان يعنيه. شعرت في البداية بأنّي أحلم لكنّي أدركت لاحقًا بأنّه بمنزلة إله. ساعدني ذلك الرجل بالحصول على وثائق رسمية في البلاد والاستقرار في مكان ما. التحقت بدورة لتعلم اللغة البلغارية والإنجليزية، وتمكّنت بفضل جهوده من التأقلم مع الحياة خلال بضعة أشهر فقط. لم أصدّق تمكّني من تحقيق كل ذلك، هل أستحقّ حقيقة هذا السخاء؟ كنت على قناعة في الماضي بأنّ قيمتي لا تذكر وأنني مذنب طوال الوقت لخطيئة ما. بقيت ذكريات الماضي قيد الأحلام. في البداية حلمت بحزام موراش ثم حلمتُ بأنّي أقف في موقع الصيد حاملًا بندقية الباز. ومرة حلمت بأنّي أخوض وأقصف أعواد الذرة التي كنت أعاقب بالركوع بينها لعدّة ساعات. وتدرّجًا تراجعت الكوايس وباتت نادرة. ثم عاودتني كظلال واستشعار من دون هينات مجسّمة. في إحدى الليالي حلمت بك وبالفتاة دانا. لا لن أنسى ذلك الحلم. كنتما صغيرتين وعاريتين تسبحان في بحر من الحليب. كنتما تضحكان ثم ظهر موراش وشرب البحر كله بقصبة سكر. تحوّلت دانا لسّمكة وأخذت تتمرّغ على اليابسة وتحوّلت أنتِ للذئبة رماديّة اللون

وسرعان ما هربت في عمق الغابة. ثم نبت في جسد السمكة جناحان
وطارت هي الأخرى تجاه الغابة.

أذكركما جيداً وكل ما يحيط بكما كان يختفي كأن العالم قد صمّم
من أجلكما فقط. اختبأت مرة في الطاحونة المائية واستمعت لها كيف
تقرأ لك وكانت تمتلك أجمل الأصوات التي استمعت لها يوماً. للأسف،
سرعان ما غادرت دانا.. أريد أن أخبرك أمراً لكنك لا تبدين أي إشارة
إلى أنك تستمعين لما أقول. لا أدري إذا كان هذا جزءاً من رغبتني للبوح
بما يعتمل في نفسي لأنال الراحة أم لتفتحي عينيك وتدركي ما حدث.
على أي حال أريد أن أصل للحقيقة. أن أتمكن من نيل الغفران لي
ولك. كوني صريحة معي يا بكية، أرجوك، أخبريني بما حدث في مصنع
الأجبان في تلك الليلة. تعالي إلى هنا واخبريني بما حدث، لن أحكم
عليك بالخطيئة، دعينا نرسم بداية جديدة، كالأطفال كما كنا سابقاً..

سالي

مدينة صوفيا

بلغاريا

12 أكتوبر 2017

أوقفوا الكاميرا

انتهينا لنهار اليوم

بِكِيَّة

ماتيا،

ماتيا من يكتُبُ لكَ وليست بِكِيَّة

اسمي ماتيا، ألا تقرأ الحروف أمامك؟

ما- تيا

الشامات

اخذت الكلمات مع غياب دانا وأخي ومعهما اخذت جميع الكتب التي كانت تقرؤها لي دانا خلال العطلة الصيفية. حين وجدت نفسي وحيدة من دونهم أوقفت دروس تعلم اللغة الألبانية، لا أحسن الكتابة والقراءة. قرأت أجمل الكتب في عيني دانا التي كانت تقرأ لي كل ليلة في الطاحونة المائية. دانا كانت ترغب أن تصبح أديبة لذا واصلت القراءة والكتابة، أمّا أنا فأعاني من آلام في معدتي منذ الصغر، تعاودني كلما شعرت بالقلق والانقباض، وكانت كل هذه الآلام تزول نهائياً كلما استمعت لصوت دانا وهي تقرأ، وحده صوتها تغلب على تلك الآلام.

سمعت الأهالي يرددون بأنّ بكية ودانا تجتمعان في الطاحونة المائية لقراءة الكتب، لكن لا أحد يدري ماذا تفعلان هناك وحدهما. «موراش، ألم تتعلم ابنتك قراءة الكتب، لماذا يقرأ لها آخرون، ألم تتعلم في المدرسة أصول القراءة؟».

دانا كانت مرآتي، دوائي، خلاصي وكان الخالق قد وضعنا في شامة واحدة، هناك حيث تجتمع ترقتانا فوق القلب لنعرف أنفسنا بصورة أفضل ولتتوه إحدانا بسهولة في الأخرى، إحدانا في عالم الأخرى من دون عودة.

- جدّتي تساني، هل ستحضر دانا للزيارة ثانية؟

- اذهبي يا ابنتي، دانا غير موجودة، لا تحضري إلى هنا ثانية،
ألا تعرفين أنّ..

فجأة توقّفت دانا عن قضاء العطلة الصيفية في القرية، لم
أرها ثانية أبداً، لا أدري ماذا أصابها! لا أدري..

فجأة

أهو الحبّ يا ترى! عن أيّ حبّ تتحدّث؟ الحبّ هنا يعادل
الموت.

إذا اخترت الحبّ فأنت بهذا تختار الموت وربما هو من يختارك،
لكنّك ستكون آخر من يدرك ذلك، قبل أن ينضح الرمان ويتشقق.

الرمّان البرّي

أطيب التحيات من أخي

أطلقوا النار على موراش، قُتل موراش، قضوا على موراش
بالقرب من حقل الرمان البري، عند أشجار الرمان. موراش،
موراش، موراش صاحت أمّي وغابت متلفعة بثيابها وتنورتها
الفضفاضة وسط الشارع تصيح: موراش يا حياتي والريح تنقل
صراخ رسل الموت الذي أدرك أمّي في الطريق الترابي المؤدّي
إلى بيتنا، وسرعان ما أردت أصوات الرسل أمّي أرضاً. غاصت
أمّي بثيابها وسط الشارع في الوقت الذي حمل فيه أربعة رجال
أقوياء جثة والدي على أربعة أغصان من شجر الزان. الطريق غير
سويّة والرجال المنحنون يتعثرون في مسيرهم فوق الطريق
الكأداء وجثّة أبي تترنّح متأرجحة كالسعال. وضعوا جسد أبي
الذي كان قد فارق الحياة بين قدمي، والآن بات عليّ أن أسأل
حسب بنود التشريع.

عليّ أن أسأل حملة جثة أبي ما ينصّ عليه القانون. أفتح فمي
ولا يخرج منه سوى هواء دافئ. الهواء الدافئ في برودة وجوه
حملة جثة أبي. الهواء الدافئ الذي نفق أمام وجه أبي. هيّا يا
ماتيا همهم حملة جثة أبي الأشداء متحاشين النظر إلى عينيّ. لم
تكن لديهم الرغبة برؤية الموت في عيني الابنة، بل كانوا يفضلون

النظر إلى الموت في عيني الأب. لا توجد لديهم نهائياً أي رغبة للنظر في عيني الابنة، لأنهم يريدون أن يناموا بهدوء وسكينة في فراشهم. وعليّ أنا أن أبقى واقفة على قدمي وأن لا أفقد السيطرة على جسدي. أسعل ثم أقول:

ماذا تحملون لي؟ جرحاً أم موت؟

دخلت أمي من البوابة الواسعة ورمت بنفسها فوق جثمان أبي، قبّلت جبينه ويديه الساخنتين بعد. كانت قد ذهبت لقطف حبّات من الرمان البري لتصنع له حلوى الرمان الشهي. أهالي القرية يردّون بأنّ موراش قد ذهب في أثرها. «أين أمك يا بكية؟» سألت موراش. أخبرته بأنّها ذهبت لقطف الرمان البري. حدث خطأ ما، كان يرغب بمحادثتها، أن يخبرها سرّاً قبل ذهابها ولا يعرفه أحد سواهما. أراد أن يراها، أن تكون هي إلى جانبه حين ترديه البندقية أرضاً. أهالي القرية يردّون بأنّ ذكور الحمام تصاب بالجنون إذا بقيت وحيدة من دون إناثها.

جرح أم موت

موت

قال حملة جثة أبي. رمت أمي بنفسها فوق جثمان أبي وتناثرت حبّات الرمان على الأرض الإسمنتية المبتلة.

لا يمكنك أن تصنعي حلوى من الرمان البري. قال أحد الرجال الذين نقلوا جثة أبي.

الرمان البري لا ينضج أبداً كما البشر.

الحجب السوداء

لن تجد روح القتيل السلام والسكينة سوى بالثأر وسفح
الدماء

بنندقية دقيقة أصابت الهدف. قال عازف البزق وعلق قميص
والذي على السياج.

عندما يصبح لون بقع الدمّ باهتة تطلب روح القتيل الثأر.
يدخل بيتنا وبيت نيمانيا الكثير من البشر، ساحة البيت اكتظت
بالحجب السوداء، أحدهم يدقّ صليباً عند مدخل المنزل، يتردد
صدى الضربات من بيت نيمانيا أيضاً، أحدهم يحفر صليباً في
أصل الباب البنيّ.

يمتدّ حشد الحجب السوداء في الطريق كسرب من النمل،
النساء المحجّبات يخدشن وجوههن، يرغبن بنزع وجوههنّ عن
الحجب ويسرن خلف العربة التي تجرّ جثمان موراش وأيديهنّ
على صدورهنّ، كأنهنّ يصلين، الحجب السوداء تبكي، يعجزن
عن نزع وجوههنّ وفساتينهنّ الطويلة تنسحب في الوحل.
الحجب السوداء تؤدّي الوظيفة المطلوبة، يتواجدن هنا حسب
الطلب للتباكي على الميتّ والعربة تجره يرافقتها حفّار القبور
وصانع الشواهد.

المطر على وشك الهطول.

قال الحفّار لصانع الشواهد. لا يزال قطيع الماعز في المرعى أردف حفّار القبور. ألتفت إلى الخلف لأراها ثم أنظر لوالدي، ظلّ حامل الصليب خلف حشد المشييعين إلى جانبي. كأنّه ذيل الحجب السوداء يجرّ نفسه مع الطّبّال هناك حيث يرفع يده عاليًا ليدقّ الطبل بعصاه. جلد الطبل المدبوغ أسود. قال حفّار القبور لصانع الشواهد: وحده الطّبّال بقي على قيد الحياة، لم يبقَ الكثير من الرجال وقريبًا لن نجد طبّالًا في القرية، ألا ترى كيف يجرّ حذاه مرهقًا. حطت ذبابة على جبين جثمان والدي، الذبابة ذاتها التي خرجت من حفرة الأرض على هيئة حذاء. قذف الحفّار آخر كتلة من التراب في القبر ثم اعتمد المعول على خصره ليرتاح قليلًا. قدّم له صانع الشواهد لفاقة تبغ، بصق على الأرض وقال:

- تخطّتنا السحابة لكنها أمطرت قطيع الماعز، إحداها مريضة تترنّح، عليّ أن أذبحها في أقرب فرصة ممكنة.

شارك نيمانيا وأخوه في مراسم تأبين القتيل وجلسا إلى المائدة لتناول طعام الغفران لروحه في بيته حسب الأصول والمبادئ المعتمدة في قانون التشريع. يجلس القاتل جنبًا إلى جنب مع أهل القتيل. أجلس إلى المائدة وأضع الخبز في أنحائها، جلس أخو نيمانيا قبالي وارتفع بخار حساء الأرنب كحاجز بيننا. انشغل الجميع بتناول الطعام. ذاك الذي ينظر عبر النافذة لا يرى رأسي الأخوين. أجسادهما تتناول الطعام من دون رأسيهما.

يرتفع أمامهما بخار حساء الأرنب. يتصاعد الدخان من جسديهما، اشتعل البارود، أكتافهما تتحرك كمنالك ابن آوى سقيم يترصد أرنبًا. حطت ذبابة على يد نيمانيا، طردها بيده، نفس الذبابة التي احتلت جبين والدي قبل دفنه حطت على يده، فمه مليء بالطعام، توقّف عن المضغ، انتفخت وجنتاه كأنّها مملأى بالحصى، وحين حاول أن يتنفس صفر أنفه، اصطاد الذبابة بمهارة بيده اليسرى، سحقها بقبضته وقذفها على الأرض، سقطت الذبابة في البقعة المتقرّرة ذاتها التي تشبه إلى حدّ بعيد حذاءً ما.

شاهدت من النافذة أرنبًا بني اللون يقفز ما بين الأعشاب، أتمنى أن لا يراه والدي، لأنّه سيصيح بي:

أعطيني البندقية يا امرأة.

لكن المقعدين الفارغين يفرغان فمويهما ليكشفوا عن الأسنان المتعفّنة في فم الغرفة.

وأدرك أنّ أسناناً جديدة لن تنبت هناك.

انتصب نيمانيا وأخوه من مقعديهما، مسحاً معاً فمويهما بالردن الأيمن لقمصانهما ثمّ غادرا بيتنا. الثأر الدموي مستمر والآن يجب أن يُقتل أحدهما بالرصاص التي كانت متواجدة في جيب بنطال والدي.

عرسٌ أم جنازة - جرح

لكنّ المرابطات لا يقتلن،

انتهت سيرة العداوة.

الموس

المرأة المتصدّعة فوق المغسل.

البقع الباهتة في المرأة تحدّد معالم وجهي، أرفع رأسي وأنظر إلى هناك، حيث ترتفع تفاحة آدم في العنق، ألصق الموس فيها. منذ ولدت وأنا أستمع لأشياء مختلفة غريبة، منذ ولدت وأنا أنتظر هذه اللحظة، هذا التماس الذي سيمحو الماضي بلا رجعة. أضغط الموس، أنتِ تستحقينه، أحدهما يؤدّي إلى الآخر، كلُّ ما سيحدث حقيقة، أليس كذلك؟ وداعًا يا بكّيّة، الموس يهبط من الجهة اليمنى لوجنة بكّيّة ليزيل رغوّة الصابون عن عنق ماتيا.

- بكّيّة، أحضري المبرد. أسمع صوت والدي ويضيف: عليّ أن أنجز بيت الحّمام.

لا بدّ أنّ ما أحسّ به بتأثير المرأة، أشعر ببرودة الموس في عنقي، يدي تحرّكه ببطء. لو يشاهدني أبي الآن. للشهر الثاني على التوالي توقّف الحيض، للشهر الثاني على التوالي وهكذا حتى يومنا هذا. ظهر شعراً خفيفاً غامقاً على صدري وعنقي وبدأت بحلاقته، ثمّ أصبح الشعر غليظاً وحاداً، أشعر به كلّ مرّة حين أمّر بيدي فوقه كما كان يفعل والدي.

أنتِ يا ابن أبيك.

موس أبي ودانا، تحدّق بي بأسنانها البيضاء، هيئتها لا تزال
هناك، محفورة في شبكيّة عيني الداخلية، أيقونة في إطار النافذة.
أجفّف رقبتني بمنشفة، أرفع رأسي لأتحقّق إذا ما نسيت شيئاً كما
هي الحال دومًا، لا بدّ أن أنسى شيئاً هذه المرّة أيضًا.
نسيت أن لا أحيض.

النور

اقرأوا آخر رسائلي وارحلوا.

تفتح الصُحُفِيَّةُ مغلف الرسالة بسكينٍ قطع الخبز وفي داخل المغلف رسالة أخرى غير مفتوحة، قلبي يتقافز كالأيل التي تسابقُ ظلَّها هرباً من رصاصة. هذه الرسالة ليست من سالي. لا تخبروني أنّ قرميد السقف آيل للسقوط فوق رأسي. قطعة منه تسقط في فنجان قهوتي تاركة بقعة سوداء فوق الملاءة. اقرئي. تكتب دانا على المغلّف. لا، الأولوية لرسالة سالي. تقرأ الصُحُفِيَّةُ رسالة سالي ليتحمّم زجاج النافذة ويسقط حبيباتٍ من الملح ثمّ تقرأ رسالة دانا ليسقط الجدار المواجه للشارع بأكمله. فجأة يملأ النور فضاء الغرفة. نور ساطع، لا يمكن احتمال هذا النور بسهولة لأنّه مفاجئ وقادر على خدش مقلة العين. لا يمكن النجاة منه حتى وإن أغمضت عينيك. ستجده هناك ثانية، قويّ إلى حدّ تظنّ بأنك تراه للمرة الأولى وأنك قد عشت حتى اللحظة في العتمة. تدرك الصُحُفِيَّةُ بأنّها غير مضطرة للنظر إليّ، حتى وإن نظرت إليّ لن تراني لأنني لم أعد هناك. تهت في النور وتجوّلت فيه. شعرت الصُحُفِيَّةُ بخجلٍ عميقٍ وبانعدام الراحة بالتواجد معي في غرفة واحدة. تدرك بأنّ اللحظة باتت مواتية لتتركني وحيدة مع النور. لا أحد يستحق ذلك، لا أحد يستحق قراءة هذه

الرسائل أو يسمع شيئاً عن محتواها. مجرد أوراق متطايرة تحطم النوافذ والجدران. بعد هاتين الرسالتين لن يبقى أحد في هذا البيت أبداً. هذا البيت لا يستحق أهله. صمت البيت طوال الوقت، احتفظ بألسنته المقطوعة محتجزة في علب الرسائل، وأنا لم أفهم شيئاً طوال هذه السنوات، لا شيء.

هذا ما يحدث عندما تقرّر أنّ حياتك تقدّر أكثر من حياة الآخرين.

حين تدرك أنّك أنت الدودة المتواجدة في حبة التفاح يطالك العطب والعفن ويبدأ التفاح كلّه بالفساد من حولك.

أتساءل هل هناك إله؟ لمن صليت حتى اللحظة؟ هل يسمع أحد ما الحصة الصغيرة في بئر الموت. أنا السبب في كل ما حدث، ليتني لم أذهب في ذلك المساء..

كل شيء انتهى، لا يمكن تغيير ما حدث.

إذا انهالت جدران البيت الثلاثة الأخرى، لن أسمع صوت انهيارها.

لأنّي أصبحت صمّاء، لا أرى سوى هذا النور الخارق الذي يعبر في داخلي على موجات.

هل أموت أم أولد ثانية!

أنا على بينة

أنا الحجر الأحمر بين يدي سالي
دفعَ الدم من ربله أبي
خطواته، تغوص في أرضية المكان
أمِّي النازفة
القميص المدمي في ساحة البيت
الماعزُ العالقة على شجرة الجوز
تتأرجح برفق كلما هبَّت ريح
وجنة دانا المتوردة
غصتُ في أخايدها وبقيت
هناك
إلى الأبد.

أنا راحلة

قبل ستّ عشرة سنة قتلت بكّيّة، واليوم سأقتل ماتيا.

خوارُ البقرة، نارٌ مشتعلةٌ في المتعةِ وسطَ الغرفة، ألم أخبركم أنّ الجدار قد هدم، لذا أشعلتُ النارَ في داخل المنزل ولا فرق ما بين الداخل والخارج. النار تبصق الصور والرسائل حتى السقف والكلمات أيضًا تتطاير متفحّمة. رأسُ أبي وأمّي يتطايران من فوقني كأنهما فراشتان سوداوان، تتحوّلان لرمادٍ ما إن تلمسان أرض المكان. تحنو عليّ السنة اللهب، تلاطفني. اعتمرت بستره والدي وفي أحد جيوبها رصاصة.

كيف ولماذا حدث كل هذا؟

ستره والدي وفي أحد جيوبها رصاصة. وثيقة سفر، ثوب، حذاء لامع، الحذاء كأنّه عضو اصطناعي. أتعثّر مع كلّ خطوة. فزاعة، رأس أبي وأمّي يتطايران من فوقني، فراشتان سوداوان، تتحوّلان لرماد ما إن تلمسان أرض المكان. أستسلم أمام خوار البقرة.

أجزّ أسناني وأطلب من جارتي وعاءين من الحبوب قبل المغيب وأطلب منها باله من القشّ مساءً ووعاء ماء. هذا كلّ ما في الأمر،

يمكنك نقل حليب البقرة لمعمل الألبان إذا رغبت بذلك لتجبينها. تعرفين يا جارتى كيفية الاعتناء بالأبقار. الجارة تهزّ رأسها علامة الموافقة ونورا تنظر إليّ بعينيهما الكبيرتين المبتلتين، البخار يخرج من أنفها الكبير وأجد نفسي عاجزة أمام خوارها. أجزّ أسناني وأقول بل لا أنطق بشيء، أظنّ أنّ ما تراه بأّم عينيك رهيب ومرعب، ألوّح لها بيدي لتمضي بعد ذلك بعيداً.

عليّ أن أقوم بمهمّة أخيرة، أن أفتح أبواب بيوت الحمام، أمرّ بكلّ أبوابها أفتح أبوابها الواحد تلو الآخر تجاه الماضي. هذه الخطوة التي أقوم بها مرتين كلّ يوم. أقوم بها نهار اليوم بصورة احتفالية وربما نهائية. أطلق سراح الحمام مع أنّي على ثقة من أنّها لن تغادر أقفاصها ولن تطير في الفضاء. الحمام دومًا يعود إلى المكان الذي قصّ فيه للمرّة الأولى ريش أجنحته.

البيت هناك حيث تقصّ ريش أجنحتها.

يتعرّج الطريق إلى الأعلى، ومهما حدث لن ألتفت إلى الخلف. أجد نفسي مدينة بعدم الالتفاف إلى الخلف. المضيّ إلى الأمام في الطريق الحجرية خلاص وكرامة. عليّ أن أنفصل نهائيًا مع كل ما عايشته وامتلكته في الماضي، تبين لي أنّ تنفيذ هذا القرار ليس سهلًا وأجبرني الحنين في لحظة أن أنظر إلى بيتي وقلعتي وسجني. بدا المنزل من فوق كوم حجارة وبيت الحمام يلقي بظل ثقيل فوقه. أرى هناك والدي، يدقّ بالمطرقة، أسمعون حكايات موراش. أسمعونه يردّد قائلًا بأنّه سيصنع أكبر بيت للحمام

في ألبانيا. بيتٌ في فم الظلِّ مباشرةً لحمائمه. يتعدَّر رؤية هذا
المشهد من مكانٍ آخر، يمكن رؤيته من هنا، من البعيد حيث أقف
الآن في هذه اللحظة قبل عبور الصخرة الفاصلة لعالمين لأمضي
إلى الأعلى مخلِّفة كلَّ شيء في الماضي.

أنا راحلة

الجزء الثاني

سَفَرُ الْجَامِعَةِ

دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ، وَالْأَرْضُ قَائِمَةٌ إِلَى الْأَبَدِ.
الشَّمْسُ تَشْرُقُ ، وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ، وَتُسْرِعُ إِلَى مَوْضِعِهَا حَيْثُ تُشْرِقُ.

الْكِتَابُ الْمَقْدَسُ

الحليب الصامت

تتعرّج الطريق كثعبان
بعيداً أكثر عن الماضي وأقرب أكثر وأكثر منه
يترنّح جسدي في الحافلة التي تبدو فارغة
أسمع عبر المذياع أغنية مألوفة.

الكلاب والجيفة في حقل توت ناضج
وبطن العجل ساخن.

الكذبة دودة تعيش في أعماقي وأغنية مألوفة تمدّ لسانها من
تحت الباب. إنّها هي، لا بدّ أنّها هي بالذات. أحدهم أخبرها بأنني
هنا لذا أتت على الفور.

حصان برونزي اللون يمزغ الزيتون
صليب وخطاف في الأخدود.

أهذه أنتِ يا دانا؟ حسبك نيمانيا، وحده يأتي متأخراً في
معمل الأجبان. أهذه أنتِ؟ نعم هي بعينها. كاحلاي يتخدّران،

اقترَبَ المغيب. ظلُّ الباب لا يزال يلقي بأغنيته وأسنانهِ البيضاء
تلمع في العتمة. إنَّها هي، كان عليها أن لا تحضر في هذا الوقت
المتأخِّر، جدَّتكَ ستغضب للغة. تغلق دانا الباب ببطء من خلفها،
أبتلع الحليب، أبتلع ريقِي. النور الفضي يعبر من الكوة الصغيرة
لمعمل الأجبان ويضيء هيئة الفتاة التي ظهرت.

عين الثعبان خطَّاف يا حبيبة
عين الثعبان أذن.

متى حضرت يا دانا، أشعر بالسعادة لرؤيتك. هل حضرت
من أجل الحليب، هل أخبرت جدَّتكَ قبل أن تأتي إلى المعمل؟
حضَّرَ أهلي الحليب للتو، عشرة لترات ونصف اللتر. كم تجود
بقرتكم من الحليب؟ لم ترد دانا على أسئلتِي، لكنَّها استمرَّت
تخطو للأمام وتغنِّي. جسدي فراشة ليلية مصلوبة على الجدار
بدبابيس نظراتها. عيان خضراوان كالطحالب، أعين ضفادع
صغيرة، أعين من دون جسد، من دون بؤبؤ، أعين من دون بياض
الملتحمة.

أنتِ وحدكِ

الأغنية تقترب من أذني أكثر وأكثر والحليب يقرقع في البرميل،
ينساب يشكِّل موجاتٍ صغيرة قبل أن يستقر في القاع وأنا أشرب

منه بحفنة يدي ويسيل على مرفقيّ قبل أن يفتح الباب. خطوتان فقط والأخضر يغمرنى كليّ. لم أفكر بالخروج من الباب الخارجي حتى لو حاولت ذلك ستمنعني دانا من المغادرة. أعرفها جيّدًا ستحتضني بيديها وسأجد نفسي مجبرة على الموت بينهما.

تدنو مني أكثر وأكثر..

ترسم شبك النافذة مربّعاتٍ دقيقة فوق وجهي. يدُ دانا تضغط فمي، باتت جزءًا لا يتجزأ من وجهي. أتقبّل هذه اليد وهذا الجسم الغريب كجزء مني. زن زن زن زن. أصبحت أنا خارج إطار هذه اللوحة. أراقب كلّ شيء بحياد. شعري يسبح في بركة من الحليب الدافئ. نظري مثبت في ثقب صغير في الجدار. الثقب يغيّر هيئته على وقع عدو الحصان. لم أر هذا الثقب من قبل، لكنّه يسمح بنفاذ الضوء. الثقب في الجدار، نعم أراه للمرّة الأولى. اعتبارًا من اليوم أقرّ بوجود هذا الثقب، لأنني أراه. الثقب يؤلمني، يؤلمني جدًّا. أشدّ ضفيرة شعري، توقّفي، عليّ أن أخبرك شيئًا يا دانا. غدًا سيزوجونني. والذي يريد أن يعقد قراني على نيمانيا. أنا أرفض هذا الزواج لكنّ هذا لا يعني شيئًا في هذه الأنحاء. هل ستحضرين حفل زفافي. أرجوك، أريدك أن تكوني بين المدعويين. عينا دانا تمتلئ ببحر من الطحالب الخضراء وفيه تتوه الألوان ودانا تقترب مني أكثر، تبتسم وتغني ووجنتها مبتلتان، نعم أنا على بيّنة.

تعالِي يا حبيبتِي واملئي راحتي يدي بوجهك.

وأبكي أنا أيضًا، وأنطق بكلماتٍ ما، سامحيني، أتضررين؟ لا أتوقّف عن الحديث، هكذا تبدو الأمور حين تخبر شخصًا بأنك قد قتلتَه. عليك أن تستمر بالحديث لينسى ما أخبرته به.

أتحدّث وأؤجّل ما سوف يحدث لا محالة، وتراه مرتبطًا بدنوّ دانا مني. حدث ما كان متوقّعًا على أيّ حال والوقت في معمل الأجبان يسير بلا رجعة، حتّى الحليب غير اتجاه دورانه.

بِكَيَّة

أشعر بأنفاسها، شربت للتوّ بعض الحليب، وأهل القرية يتحدثون «سرٌّ ما تخفيه الفتاتان»، دانا وبِكَيَّة تلتقيان عند طاحونة الماء بحجّة مطالعة وقراءة بعض الكتب، لكن لا أحد يعرف ما يفعلان في الواقع. موراش، ألم تتعلّم ابنتك القراءة لتقرأ لها دانا الكتب، ألم تتعلّم في المدرسة؟ احزمي أمتعتك غدًا تنزوّجين.

غداً يا حبيبتِي

غداً، أرجوك أن تحضري.

بات قريبًا للغاية، قريبًا من القلب، أنا فراشة سوداء، مصلوبة

على جدار قرميديّ، بدبابيس من نظراتها الكريستالية.

يعني غداً.

للمرّة الأولى أشعر بطعم الحياة التي عصّت شفّتي السفلى
وأقول آه، ثمّ يضغطني جسدها إلى الجدار وأصبح نعم.

هل مارست الحياة حتّى اللحظة؟ تمسكني دانا بيديها
الطويلتين، تضمّ خصري لتسقط كلانا جهة أوعية الحليب
المعدنية التي تردّد صوت تدحرجها في المكان كالأجراس. أواني
الحليب هدايا حفل زفافي وثوبي يخوض في الحليب الممتزج
بالطين. الأواني تدقّ على وقع الفارس. زن زن، وأسرع. زن زن
زن زن.

أحبّك..

يد دانا تضغط فمي بقوة، يدها جزء لا يتجزأ من وجهي.
أتقبّل هذه اليد وهذا الجسم الغريب كجزء منّي. العينان تفيضان
والرغبة تمزّق بأسنانها وجهينا، تغرز أظافرها في ظهرينا. تنتظر
الغريزة لتخرج كوحش قبع طويلاً في إحدى الزوايا ورطبّ طوال
الوقت سرّاً حجارة طاحونة الماء الذي أمضيناه بقراءة كتاب
وأستمع لصوتها العذب. لا أدري إذا افترقنا في تلك اللحظة هل
سنتمكّن من الفكاك!

لا تتركيني..

فخذنا دانا الطريتان كـرغيف خبزٍ تضغطان جسدي كأنهما
كـمّاشة. أصابعها تتوه في الألم المتصاعد تحت البطن والموجة
تتفاقم في كياني، ترفعه عاليًا ثمّ تقذفه أرضًا، صرخة ثمّ أنفاس
متصاعدة محمومة.

أتراني أولد أم أموت بين يديك؟

قبّلت دانا عيني، ثمّ شفّتي ثمّ توقّفت عن تقبيلي وأخفت رأسها
في شعري. أنا مغادرة، أدرك ما يعني ذلك، هذه نهاية الدنيا. ما
زلت أذكر قبلاّتها المألحة والثقب الصغير في الجدار، ذاك الذي
شاهدته للمرّة الأولى.

عندما تبكي دانا بصوتها، سأعثر عليك من الثقب الذي تنسلّ
منه آخر خيوط نور النهار، الذي سيتحوّل لليلٍ مظلمٍ دامسٍ لي
ولكٍ عندما يغادر هذا المكان.

أتراني أولد أم أموت.

تنتصب دانا، تصلح شعرها ووجنتيها تحترق محمّرة.

تبتسم لي، ملاكي الجميل يبتسم لي، الطريق تتعرّج إلى
الماضي البعيد. مرحبًا يا بكّيّة، مرحبًا يا دانا. أتحمّس تلك
المنطقة الرطبة، أصابعي تلوّثت بالدم.

سأعشّقك إلى الأبد

سأعشّقك إلى الأبد..

أنتصبُ وأنحني فوق الحليب، أغسلُ وجهي بالسائل الأبيض،
أغسلُ تلك المنطقة حيث تركّز الألم.

أحزم جديلتي وأجمعُ شعري إلى الخلف

أعرف ما عليّ أن أفعل هذا المساء

كنت على موعد لدفن بكية

لأنّها ماتت هذا المساء

الطريق تتعرج كثعبان

بعيداً إلى الماضي وقريبة في الوقت نفسه

الحافلة تؤرجح جسدي كأنّ شخصاً ما يستيقظ في هذا الجسد

أسمع من مذياع الحافلة أغنية ما

شيءٌ ينمو في بطني ولا أدري ما هو

أوردةٌ هو أم كتلة من الأعشاب.

الرسالة الرابعة والأخيرة

مرحبًا يا أختي،

أدرك أنه من الصعب الحصول على جواب منك، لذا قررت أن أخبرك بكل ما كنت أرغب أن أخبرك به لو وافقت على الحضور إليّ. لديّ رغبة كبيرة لسماع الحقيقة منك، وأن يغفر كلّ منا للآخر، لكن يبدو أنّ عليّ أن أصرّح بهذه الحقيقة.

أعرف ما حدث في تلك الليلة، حين ذهبت لمعمل الأجبان وتأخرت، مع أنني تمنيت أن لا أكون شاهدًا على ما حدث، لكنني شاهدت كل شيء. أنت تعرفين كم أحبّ اللحاق بك أينما توجّهت وأحيانًا أفعل ذلك سرًّا. لحقت بك إلى معمل الأجبان وبقيتُ في الخارج، ومن الثقب الصغير رأيت وسمعت كلّ ما حدث خاصّة حين بدأت دانا بالقراءة. ركعتُ على إحدى قدمي وأغلقتُ عينيّ. كان الأمر بالنسبة لي بمنزلة لعبة كما في كل مرّة حتّى دخلت دانا واقتربتُ منك، التصقت بك ورأيت اللوحة كلّها. مارستما الحبّ ولا أزال أتذكّر تلك الأغنية التي غنّتها دانا، وأتذكّر كلماتها التي أسرّتها لك. أجمل الكلمات التي سمعتها في حياتي. أنا غير آسف لأتّي تواجدت هناك وشهدت الحادثة. أتذكرين؟ عين الثعبان أدنّ يا حبيبة، عين

الثعبان أذُن. أنا لست نادماً لتواجدي هناك ولو لم أفعل لما امتلكت الشجاعة لأحزم أمتعتي وأهرب، بعد أن وضعتِ الشارة السوداء على ذراعي. الإهانة التي وجهتها لي منحنتني الشجاعة. كنتِ على قناعة من أنّ نيمانيا سيطلق النار عليك لأنك لست عذراء، لذا قرّرت أن تصبّحي مرابطة واخترت موت أخيك. هذا ما دفعني للتفكير بنفسي وتفضيل الهرب. تعرفين الآن بأنني قد فعلت ذلك للأسباب نفسها التي حثّتك على هذا الخيار، لأنجو من موتٍ محقّق وليدفع آخر الثمن، موراش.

نجاه وانتقام في آنٍ واحد كما في عالم الكتب. هذا ليس كلّ شيء، كنت غاضباً ومستاءً وأقدمت على خطوة أخرى ندمت عليها حتى اللحظة. في مساء متأخر من ذلك اليوم وبعد أن وضعتِ الشارة السوداء على ذراعي خرجتُ إلى الشارع لأنني شعرت بالاختناق في المنزل وعندها التقيت دانا سألتني إذا ما كنتِ في البيت. كانت تحمل رسالة لك. أخبرتها بأنك قد نمتِ ويمكنني نقل الرسالة لك صباح الغد وكنت أشعر بالغثيان من خطوتك الدنيئة تلك، لذا أخذت الرسالة ولم أسلمها لك أبداً. بقيتُ في الجيب الداخلي لسترتي وفي تلك الليلة هربتُ من البيت. عندها كنتُ على قناعة بأنك لا تستحقين السعادة واحتفاظي بالرسالة كان انتقامي الخاص منك. قرّرتُ أن أحرمك من السعادة التي عشّتها مع دانا. اليوم أنا لا أفكر بذات الطريقة. كلّ إنسان يستحقّ سعادته بما في ذلك أنتِ أيضاً وعلى الرغم من كلّ ما فعلته، أغفرُ لك وأرفق

رسالة دانا في هذا الخطاب وأرجو أن تسامحيني.

هناك أمرٌ إيجابي في كلِّ ما حدث. بالأمس قابلت دانا في إحدى الحافلات العامّة، عرفتُ بأنّها تعيش في الحيّ المجاور. دانا أصبحت أجمل من ذي قبل. عرفتني على الفور، تبادلنا بعض الكلمات. سألتني عنكِ وأخبرتنا بأنّي لا أعرف أخباركِ منذ سنوات. هذا ما دفعني لأكتب هذه الرسالة وأرفق لكِ خطابها. شعرت بالأسى بعد هذا اللقاء كأنّي المتّمهم الرئيس بفشل وهدر حياة شخصين كان بإمكانهما أن يمارسا حياة ملاءى بالسعادة. أرجوكِ، اغفري لي يا بكيّة. خطيئتي السابقة هي أسوأ انهيار أعيشه في الوقتِ الراهن.

ومع هذا.. حصلتُ على رقم هاتفها، أبديتُ رغبةً لأن نلتقي ثانية لنحتسي يوماً ما فنجان قهوة. أخبرتني بأنّها ستسافر في بعثة أدبيّة إلى بريطانيا بعد أسبوعين ولفترة غير محدودة. وقد تبقى للعمل هناك فهي لا ترغب بالعودة إلى صوفيا. أخبرتني بأنّها تشعر بالاختناق في هذه المدينة ولا يمكنها تحمّل وقع الحياة فيها. بكيّة، أرجوكِ، تعالي لزيارتي، أنتِ دومًا على الرحب والسعة. لا حاجة هذه المرّة لموتٍ أحدٍ ما. تملكين رقم هاتفي وتعرفين عنوان بيتي. أنا بانتظارك حتى وإن لم تحضري.

ملاحظة: سارعي بالحضور إلى صوفيا قبل أن تسافر دانا وقد لا
تعود ثانية.

سالي

19.01.2018

مدينة صوفيا

بلغاريا

الكذبة

كلمات دانا ثقبوب في ستائر الحافلة القذرة وهذا الوجع
المألوف في البطن والخاصرة منذ أن حفرت تلك الذكرى، منذ
غنت:

سأحبك إلى الأبد

سأحبك إلى الأبد

ما قدمته لك يعجز عنه الآخرون. كل إنسان يحصد ما زرع
أيّتها الغبية. أمضيت ستة عشر عامًا وأنا أسير تجاهك. الشيء
الوحيد الذي يتعذّر استعادته هو الوقت. يا ابن أبيك. هل تريد
نكرًا يا موراش، تفضّل مولودك الذكر تمامًا كما تشتهي وتريد.

مرحبًا، التقيت اليوم أباك عند النهر يا بكية. كان يغسل جلد ما عز
غير مدبوغ برفقة أمك وسالي. رائحة الجلد النتنة تملأ حوض النهر
بأكمله. أخبرني والدك بأنك سعيدة وأنك على وشك الزواج وهذا ما
كنت تنتظرينه منذ وقتٍ طويل وأنك تحبّين خطيبك الذي ينحدر من

عائلة نبيلة وأنتك تحببينه كما تحسن النساء ذلك. هل هذا صحيح؟
بالأمس تملكنتني مشاعر تفيد بغير ذلك، حسبتك لوهلة ملكي أنا
وحدي.

الكذبة دودة

هل هذا صحيح يا بكية؟ هل تحببينه، لماذا كذبت عليّ إذًا؟

الكذبة دودة. الكلمات التالية في الرسالة جعلتني أتمنى أن
تنقلب الحافلة في الحفر العميق في الأسفل، أن أتدلى من مقعدي
كقطعة جلد ماعز وأن لا أسمع أيّ كلمات أخرى أبدًا. لا شيء
سوى صوت الراديو في الحفر العميق ولا ينقطع الصوت حتى
وإن تحطّم رأسي خلال السقوط المدويّ. الأفكار تتقاذف في
رأسي. ستّ عشرة سنة، ستّ عشرة سنة. جدّتي العزيزة تسألني،
هل ستحضر دانا هذا الصيف؟

لا أدري من أصدّق الآن، أصدّقك أنت أم والدك؟ لا أدري ما أفعل،
أبدو تائهة من دونك أرجو يا بكية أن يكون ما تفضّل به والدك مغايرًا
للحقيقة وأنتك لا تحببني خطيبك نيمانيا، سأنتظرك على أيّ حال هذه
الليلة عند معمل الألبان لنهرب أنا وأنت إلى بلغاريا. أنت تستحقين أكثر
بكثير من هذا الزواج. سنستأجر بيتًا في صوفيا وسنعيش سوية. سأقرأ
لك صفحات طويلة من الكتب كلّ مساء وسنشرب الحليب، أعدك
بذلك، أرجوك يا بكية، فقط اخبريني أن كلام والدك ليس صحيحًا.

يحصد الإنسان ما يزرع، كلُّ إنسان يستحقُّ آلامه، وحده
يتحمَّل مسؤولياتها، وحده قادر على إلحاق الأذى لنفسه.

قلت لها بأنك نائمة وطلبتُ منها أن تعطيني الرسالة لأنقلها
لكِ عند الصباح.

إذا لم تحضري هذا المساء يا بكيّة سأغادر على الفور إلى بلغاريا
ولن أعود أبداً
ولن أعود أبداً
ولن أعود أبداً

أنا قادمة يا حبيبتي. الحافلة تؤرجح جسدي، شيء ما ينمو في
بطني، ليس كتلة من العشب. أعرف جيداً ماهيته، وردة محاطة
بالشوك واسمها دانا.

المخلصة إلى الأبد
دانا

طائرُ حمامٍ أبيض

ينفتح باب الحافلة ويبدأ المسافرون بمغادرتها في جناح القادمين، يحملُ البعض حقائبَ أو شنطة يد والنساء يحملن حقائبهنَّ الخاصّة وأكياسًا من النايلون وأطفالاً، وعلى بعد عشرة أمتار يقف هناك مباشرة عند البوابة الدوّارة يرتدي سترة بنية اللون وبنطال جينز ذا لون أزرق غامق. الملابس على أيِّ حال بلا أهمية لأنَّ جميع المتواجدين في محطة الباصات الدولية يرتدون ملابس لكنّه وحده يحمل يافطة كُتِبَ عليها «بكيّة» والرجل يحمل اسم سالي، ينتظر أخته التي لم يرها منذ سنواتٍ طويلة. ذهنه منشغل ويتساءل «هل سيتعرّف عليها؟». يدُ تحمل يافطة والأخرى في جيب السترة. هذا ليس ذا أهميّة على أيِّ حال، الأجلُّ من ذلك أن اليد التي تحمل اليافطة متعرّقة من كثرة الضغط على اليافطة، وستترك الأصابع أثراً على اليافطة إذا تركها. هو لا يفكرُ بأثر أصابعه، ذهنه منشغل بقاء أخته وما ستقوله خلال اللقاء المنتظر. هل ستعرفه؟ ما خطب الملابس التي ترتديها! أمورٌ لا تعني شيئاً للآخرين لكنّها هامّة بالنسبة له. تملّكته الرغبة بتخطي لحظة حرج لقاء الأخ بأخته، شخصان حكما على أنفسهما منذ وقتٍ بعيد بالموت. هل سيطلب منها المغفرة في الوهلة الأولى من اللقاء أم سينتظر حتى العودة إلى المنزل؟ هل سيتحدثان

بهذا الشأن في مقاعد الانتظار عند محطة الباصات أم في طريق العودة. هل سيتحدّثان عن الماضي؟ أدارت البوابة الزمن لست عشرة سنة إلى الوراء ليدخل رجل لطيف المعشر شعره مسرّح إلى الجانب بعناية. يدخل عبر البوابة الدوّارة مرتدياً ثوباً تقليدياً قديماً. الحذاء أبيض لامع ذو كعب مرتفع. يسير بصعوبة ربّما بسبب الحذاء ذي الكعب المرتفع. يدفعه جناحا البوابة إلى الأمام تنطوي ركبتاه ويقع بفعل قوّة البوابة الطردية. يعتقد البعض أن السبب في ذلك هو الحذاء غير المريح، لكنّ البوابة هي التي عرقلت حركته. البوابة بمنزلة الحياة، إذا دخلتها لا تسألك إلى أين أنتَ ذاهب وما هي وجهتك؟ تدور دقات البوابة إلى الأمام وعليك مجاراتها في مسيرتك. لا تستعجل الخطى ولا تبطئ فالدقّة الخلفية بالمرصاد وستدفعك وستسقط لا محالة. احذرا! عليك أن تجاري رتابة البوابة في دورانها وإلا سقطت على وجهك وقد تؤذي نفسك أيضاً.

تلتقي عينا الشاب الضيف بعيني سالي. الأعين متماثلة بالكامل والأنفان أيضاً فهما لأخ وأخت. يمكن لأيّ عابر طريق أن يلاحظ هذا الشبه من دون أن يعرفهما مسبقاً. ما إن يمرّ إلى جانبهما حتى يتيقن من أنّهما أخ وأخت قبل أن يمضي في سبيله. الشاب المرتدي ثوباً يعرف أنّ اسمه مكتوب على الياقطة. الشاب هو امرأة على الرغم من منظره الرجولي، مقاطع وجهه الرقيقة تفضح حقيقته. تخرج المرأة من البوابة الدائرية التي تدفعها من الخلف لتسقط على الأرض. الحقيبة الثقيلة تضغطها إلى الأسفل

ولا تتمكّن من النهوض كأنّها لا تمتلك القدرة على ذلك. يندفع سالي نحوها قد يظنّ البعض أنّه سارع لرفعها عن الأرض، لكنّه ينحني ويضمّها إلى صدره. يضمّها بشدّة من خصرها ولا يبدي رغبة لمساعدتها، لتنهض عن أرض صالة الانتظار الباردة. هي دومًا باردة لكنّ هذا ليس مهمًّا نهار اليوم لأنّ أختًا وأختًا يتعانقان ويبيكيان من شدّة الفرح والألم والتأثّر. لا يتفوّهان بكلمة واحدة، لأنّ الحديث يفقد أهميته في متن هذه اللوحة التي أبكت امرأة سمينية للغاية كانت تجلس فوق كرسيّ صغير في صالة الكازينو في محطة الحافلات. يُسمّع صوت مكبّر الصوت من عمق الصالة «لقد ربحت يا سيدتي عشرين ليفا، وكان بإمكانك أن تربحي مئتين لو ضاعفت الرهان». تمسح المرأة أنفها من شدّة الانفعال وتُبقي على صمتها تجاه موظّف عجلة الرهان المستديرة. سالي وأخته لا يزالان متعانقين في أرض الصالة من دون حراك. المرأة السمينية تستدير نحو العجلة وترهن كلّ ما تملك بجرأة لتربح أعلى نسبة ممكنة. «تَحَلِّي بالجرأة يا امرأة، تحلّي بالجرأة لقد شاهدت الربّ اليوم وأدركت أنّ الخسارة غير واردة».

كلّ الأحداث التي سيشهدها نهار الغد مختلفة. تدور البوابة وتعبّر موجة جديدة من المسافرين القادمين ومعهم يعبر طائرُ حمام أبيض، يرتطم رأسه بأحد المسافرين لكنّه سرعان ما يرتقي إلى الأعلى ليحطّ فوق ساعة المحطة. تراه المرأة السمينية، تمسح أنفها بردنها موشكة على مواصلة الرهان على العجلة المستديرة مجددًا.

الدفة اليمنى للخرانة

المناشف في الحمّام، وستجدين في الدولاب فوق المغسلة شامبو وصابون. في الجزء الأيسر من الخزانة ستجدين ملابس جديدة ونظيفة لإحدى صديقاتي، غالباً ما تحضر لزيارتي وقامتها تماثل قامتك ومقاسكما واحد. الدفقة الأولى من المياه باردة. بكية على قناعة بأنّ الماء البارد سيوقظها من حلمها الذي اختارته بمحض إرادتها. ثمّ تسخن المياه تدريجياً، تحمرّ بشرتها وتولد الأفكار الواحدة تلو الأخرى في وعيها. تتزاحم وتتقافز، تندمج في بوتقة واحدة وتنفصل، تومض كلوحات الدعاية المضيفة في المدينة. كلّ هذه الأنوار! كيف يعيش الناس هنا في هذا الازدحام والضجيج ما بين آلاف العربات المليئة بالأفكار المتركمة في تلافيف الدماغ.

يمكنك التأقلم مع كلّ شيء، حتى مع ذاتك.

مرحباً، التقيت اليوم أباك عند النهر يا بكية. كان يغسل جلد ماعز غير مدبوغ برفقة أمك وسالي. رائحة الجلد النتنة تملأ حوض النهر بأكمله. أخبرني والدك بأنك سعيدة وأنك على وشك الزواج وهذا ما كنت تأملينه منذ وقتٍ طويل وأنك تحبين خطيبك الذي ينحدر من عائلة نبيلة وأنك تحبينه كما تحسن النساء ذلك. هل هذا صحيح؟ سأحبك إلى الأبد، سأحبك إلى الأبد.

بخار الحمّام كثيف وضبابي يحجب عني المرأة، أمسحها بيدي.
«بالأمس شاهدت دانا في الحافلة، تبين لي أنّها تعيش في الحيّ
المجاور، باتت أجمل بكثير من السابق». توقّفي عن ذلك يا فتاة،
هذه الأفكار ستقتلك، أنا دائماً أغرق بالتفكير أكثر من اللازم. هل
يغرق الآخرون بالتفكير مثلي أم أنّي قد أصبت بلوثة؟ أوقف
صنابير الماء وتنقطع حبال التفكير على الفور.

في الدقّة اليسرى من الخزانة ملابس نسائية لصديقتة التي
غالباً ما تزوره في البيت، قامتانا متماثلتان. أفتح الدقّة اليمنى
لأعثر على ملابس سالي مصفوفة ومرتبّة، أشتم رائحتها ثم أغلق
دقّة الخزانة. أفتح باب المطبخ، قد أتوه في هذا البيت. ينظر أخي
إليّ ساهماً جالساً إلى المائدة وأمامه كوبان من الشاي. كنت
قد ارتديت ثيابه، بنظراً وحزماً وقميصاً. يضحك أخي، يشعر
ببعض الحرج ويصمت. يكتفي بالابتسام ويردف.

- كنت على ثقة من أنّك سترتدين ملابسني.

- كيف عرفت ذلك.

- عرفته بطريقتي الخاصة.

بعض الأمور تحتاج للحدس فقط. تماماً كحقيقة أنّ اسمي
ماتيا. نعم، اسمي ماتيا.

- أعرف ذلك، أخبرتني بهذه الحقيقة أكثر من مرّة. حين
كنّا صغاراً قلت لي بأنّ ماتيا هو الاسم الذي تريدينه لو ولدت

ذكَرًا. أَظَنَّكَ قَدِ اخْتَرْتَ هَذَا الْاسْمَ حِينَ قَرَّرْتَ أَنْ تَصْبِحِي مَرَابِطَةً.
يَسِّرْنِي أُنَّكَ هُنَا فِي بَيْتِي، لَقَدْ غَلَيْتِ لِكِ الشَّايِ. تَفَضَّلِي.

أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْهَلِ دَوْمًا أَنْ تَدْعُو الضَّيْفَ لِشَرْبِ الشَّايِ
بَدَلًا مِنْ تَنَاوُلِ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ بِمَخْتَلَفِ الْأُمُورِ. مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ
تَسْتَسْلِمَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ بَدَلًا مِنْ تَحْدِي الْحَيَاةِ، وَتَقْتَنِعَ بِأَنَّكَ
لَسْتَ قَوِيًّا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي تَتَوَقَّعُهُ.

- لِمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ. لَقَدْ قَلْنَا كُلَّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الرَّسَائِلِ
وَمَا دَمَتْ هُنَا، يَعْنِي بِأَنَّكَ سَتَبْقِيْنَ فِي هَذَا الْبَيْتِ طَوِيلًا. أَلَيْسَ
كَذَلِكَ؟

- لَا أَدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ بِحَيَاتِي. هَذَا مَا يَخِيفُنِي. لَا أَدْرِي مَا أَفْعَلُ
بِنَفْسِي؟ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَبْدُو وَاثِقَةٌ مِنْهُ هُوَ عَدَمُ رَغْبَتِي
بِالْعُودَةِ إِلَى هُنَاكَ.

- هَلْ قَابَلْتِ شَخْصًا يَحَاوِلُ الْهَرَبَ مِنْ ظِلِّهِ. أَنَا لَمْ أَقَابِلْ هَكَذَا
إِنْسَانَ. لِذَا تَرَانِي عَلَى قِنَاعَةٍ مِنْ أَنَّهَا سَتَبْقَى هُنَا وَسَتَنْجِرُّ مِنْ
خَلْفِي كَسَلْسَلَةٍ ثَقِيلَةٍ. يَوْجَدُ فِي بَيْتِي مَا يَكْفِي مِنَ الْمَسَاحَةِ
لِإِقَامَتِكَ الدَّائِمَةِ. يُمْكِنُكَ الْبَقَاءُ الْوَقْتُ الَّذِي تَرِيدِيْنَهُ. أَعِيشِ وَحْدِي
وَلَا أَجِدُ حَرَجًا بِإِقَامَتِكَ فِي بَيْتِي وَسَأُسَاعِدُكَ لِلْعُثُورِ عَلَى عَمَلٍ.

مَارِسِ سَالِي حَيَاتِهِ بِصُورَةٍ مَنْتَظِمَةٍ. الْعَمَلُ وَوَأَجِبَاتِ الْبَيْتِ
وَالْبُورْصَةُ وَالْمُوَاصَلَاتِ الْعَامَّةِ وَالْمَحَلَّاتِ التَّجَارِيَّةِ وَالتَّنْزِيلَاتِ
الْمَوْسِمِيَّةِ.

- ستشعرين هنا براحة واستقرار مقارنة بالحياة في القرية.

تُرى متى سيجد الفرصة المواتية لطرح الموضوع الذي حضرت من أجله؟

- أعرف بأنك لم تحضري إلى هنا من أجلي. قال لي سالي. شعرتُ بالألم في معدتي وأضاف أخي: أعرف بأنك قد حضرت من أجل..

عندها وقفتُ وذهبتُ إلى المغسلة، فتحت صنوبر الماء البارد وشربت جرعة كبيرة. أحسست بالماء يسيل ويتدفق في أوصالي تتخلله ومضات ألم لا ترحم.

- هل أنت بخير يا بكيّة؟ أتشعرين بالألم؟ يسأل سالي وأهزّ رأسي لأنّ حركاتي محدودة للغاية. أشعر بوردة ملأى بالشوك قد انغرست في حنجرتي وأنتظر من أخي أن ينتزعها، وها هو يفعل.
- يمكنني أن أتصل بدانا على الفور.

دانا

مرّ اسمها كموسٍ حادّ في جسدي، مزّقني ورماني أرضاً. حين بلغ الألم ذورته تخلّت حواسّي عن وظائفها المألوفة. دارت الدنيا أمامي وشعرت بضغط في مؤخّرة رأسي، تسارعت أنفاسي وفقدت القدرة على تقدير الوقت. أخيراً وقبل أن أسقط مغمّي

عليّ اختفت مشاعر الألم، غلبني النعاس وسمعت بعض العبارات
المتفرقة وصوت أخي يصيح:

«نعم الهاتف رقم 120 أرسلوا سيارة إسعاف بسرعة». وربما
سمعته يقول:

«دانا، المعذرة للإزعاج، هذا أنا، سالي».

جنينٌ في جنين – Fetus in fetu

بكيّة

نور النوافذ يجرح مقلة العين. الغرفة بيضاء تفوح منها رائحة
الدولاب الذي احتفظنا فيه بالأدوية. هيئة غامضة غير محدّدة
المعالم همست باسمك. أعرف هذا الصوت جيّدًا. أين أنا، أحتاج
لهذا الصوت تحديدًا. أهذه أنتِ يا دانا؟ أوّ أنّ أسأل لكنني لا أقوى
على فتح فمي. أرفع طرف إصبعي لتدرك هي ما تريد أن تعرف.
هذه أنا دانا، تقترب ثمّ تتوضّح هيئتها المنحنية من فوقني كاشفة
عن أجمل امرأة. لا أشكُّ أنّني ضحية الهلوسة، فجأة تعانقني دانا
ويتوه وجهي في شعرها الذي يفوح برائحة الشامبو النسويّ
الذي تستخدمه يوميًا. وجهها ناعم لطيف، وجنتها الدافئة تلامس
وجنتي ولا أحرك ساكنًا. تنسحب فجأة بحدّة كأنّ أحدًا ما قد طلب
منها ذلك وتجلس على السرير. قالت بأنّ سالي قد هاتفتها، أخبرها
بأنّني قد تعرّضت لآلام مبرّحة في المعدة، لهذا حضرت على
الفور. لم أتوقّع أن نلتقي بعد كلّ هذه السنوات في المستشفى.

لا تغادري..

الإنسان وكلّ حاجاته العاجلة، نبدو شخصيات عاجزة وقاصرة
للغاية. نحن البشر لا نحسن الموت على انفراد، يتحمّل الخوف

الذنب كلّه ويتلاعب الحبّ بنا كما يشاء. يرنّ الهاتف ويطرح أسئلة غير مريحة، يتسوّّل. يا له من أمر غريب، لم أعد أشعر بالوردة في معدتي. لا أشعر بشيء سوى رائحة شامبو دانا في شعرها ووجهها. ما الذي حدث؟

خضعت لعملية جراحية معقّدة للغاية. معجزة طبية بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى. تُخرج دانا صحيفة يومية.

لم أسألها عما حدث معي بل أتحدّث عنّا. ما الذي حدث لنا وهي لا تفهمني فقد أحدثت السنون فجوة كبيرة بيننا. دانا تعاملني كأحد معارفها ولا يمكنني توقّع أكثر من ذلك. هذا غير صحيح بالنسبة لي فأنا أرى الواقع والحقيقة جيّداً. يداها ترتجفان وهي تمسك بالصحيفة بأصابعها الطويلة، عيناها دامعتان. شيء ما وخز عيني تقول محاولة أن تخلق كذبة. شيء وخز عيناها منذ ستّ عشرة سنة حسب علمي ودانا تقرأ.

اكتشاف مرعب توأم يعيش 33 عاماً في أخته

امرأة في الثالثة والثلاثين من العمر تدخل مستشفى القديسة صوفيا بعد أن تعرّضت لآلام مبرحة في البطن وبدلاً من الورم الضخم الذي توقّعه الأطباء عثروا على بقايا توأم شبه مكتمل، عاش في جسدها منذ ولادتها، هذه الحالة اعتبرت فريدة ونادرة في عالم الطبّ ومعروفة على الصعيد العلمي بمسمّى «جنينٌ في جنين» *Fetus in fetu*، حيث يتعلّق أحد الأجنة بكيان الآخر ليشكّل علاقة حيوية. يبلغ وزن الكيان التوأم 1.8 كيلوغرام بما في ذلك العظام والشعر والأسنان وقد تمكّن من تنمية حبل سرّة داخل تجويف بطن المرأة. التوأم المُضيف يعتبر الأقوى والضيف هو الأضعف. التوأم الأقوى هو للأُنثى التي لم تهضم التوأم الآخر خلال تواجده في بطنها. تمكّن الأطباء من استئصال التوأم وحالة المرأة مرضية وفي تحسّن.

أريد أن أعادرك، لا أقدر على احتمال خطيئة موتٍ آخر. أليس كذلك يا دانا؟ أخبريني بالله عليك، هل أنا مذنبه، هل أنا قاتلة؟ كنت أستمع لصوت أبي وأنا لا أزال في رحم أمّي يردّد بأنّه يرغب ولداً ذكراً. الآن توضّح كلّ شيء. كانت أمّي حامل توأم، ولد وبنت. أنا البنت واستؤصل الذكر في المشفى. أهل القرية ردّدوا بأنّ

هيئة بطنها لا توحى بأنّها حامل بذكر، هيئة بطنها لا توحى بأنّها حامل بأنثى. هيئة بطنها وسطية محيرة. أمّي كانت تدمي في الحمام وجدّتي تقول «لا يجب لهذه البنت أن تولد، يجب أن يولد الجنين الذكر ليحمل اسم العائلة، لست بحاجة لأنثى يا موراش».

عانقتني دانا، يا لها من ساذجة، هي على قناعة من أنّ عناقها سيوقف دمعي وسيبعث الحياة في جسد أخي التوأم. أنا أستحقّ مصيري بكل التفاصيل الواردة فيه وقتل الأخ خطيئة. أنا لا أستحقّ الحياة، القتلة لا يستحقون الحياة. أريد أن أغادر هذا السرير. تحاول دانا منعي من ذلك، تمسك يدي وتشدني نحوها بقوة. يداها دافئتان كزغيف الخبز. والدي امتلك ابناً طوال هذه الفترة، لكنّه عاش في داخلي. حملته لثلاث وثلاثين سنة. بقي هذا الابن في داخلي طوال الوقت، أنا هو الابن الحقيقي لأبي. أليس كذلك؟

كلّ ما يتمناه المرء يتحقّق

بطريقة أو بأخرى

خلال تواجدي في رحم أمّي سمعتُ أمورًا مختلفة كأن يردّد والدي بين الحين والآخر: «أرجوك يا دكتور، لعلك تبذل المزيد من الجهد». والطبيب يجيب بأسف مؤكّداً عدم وجود جنين ذكر في

بطن زوجته ويضيف بأن الجنين الأنثى سويّ لحسن الحظّ، وإذا
تمكّن من النموّ، سيرزق والدي بفتاة مكتملة قويّة. يا ابن أبيك،
ابق في داخلي.

ترفع دانا باطني كفيها لتملأ بهما كلّ وجهي. أبكي مطوّلاً
ودانا تشاركني البكاء ثمّ نصمت، تستلقي بجانبني على السرير
وتعانقني.

أنتِ لست مذنبه. تقول.

أنتِ لستِ مذنبه لأنّك قد وُلدتِ أنثى

الشيء الذي لا يمكن للإنسان أن يتحمّل مسؤوليته هو واقعة
ولادته.

ثمّ نمنا..

المناجد الحافرة

لم تتوقّف دانا خلال الأيام القليلة عن زيارتها، وكانت تُحضر لها وجبات شهية، لأنّ المستشفى يقدّم بعض اللبن وقطعتين من الخبز فقط، عدا عن أنّهم وضعوني ضمن نظام خاص بسبب العملية التي أجريت بالقرب من معدتي. دانا تحضر معها كلّ يوم كتابًا جديدًا، لقاءاتنا تستمر لنحو الساعتين نمضيها كما يحلو لنا. لم نتناول مواضيع محدّدة لكنّها تكتفي بالجلوس على الكرسي قبالة السرير وتنهمك بالقراءة، في الوقت الذي أرغب فيه بمحادثتها بشأن الكثير من القضايا المختلفة. لكن وبدلاً من ذلك أفضل الاستماع لصوتها وأموت ببطء. أشعر فيما تبقى من الوقت بأنّي على وشك الجنون إذا بقيت في هذه الغرفة لفترة أطول. الأطباء يرفضون خروجي من المستشفى وفي الغرفة رقم ستة ترقد امرأة في منتهى العصبية وتصرّ على المغادرة دون تأخير. كيف يمكننا مساعدتها يا دكتور ما دامت مصرّة على الخروج من المستشفى؟ فلتدفع الفاتورة ولتذهب في طريقها. أرجوك يا دانا، دعهم يخلون سراحي أو فليقدّموا بعض المسكّنات لتلك المرأة المهتاجة. أخبرتني دانا بأنّهم قد قاموا بذلك. ضاعفوا الكمية لتهدأ هذه المجنونة يا دانا، أرجوك.

لا تذهبي..

كلّما ازدادت رغبتك بتحقيق غاية ما، تتعلّق بك وترفض الانعتاق. مجدّداً تلك المرأة في الغرفة رقم ستة. لم تعد المهدّئات ذات فائدة والممرّضة لا تقوى على مواجهة الأمر الواقع، لكنّها ملزمة بالتعامل مع حالة الهستيريا والانفعال في تلك الغرفة. أنسى وقع الأيام الثقيلة حين تقرأ لي دانا من كتبها فقط، أتوه في عالمها على الرغم من شخير المرأة العجوز بجواري التي لا تتوقف عن الثرثرة فيما تبقى من الوقت وتساءل: هل أنتِ متزوّجة، ألدك أولاد، هل يحترمك زوجكِ؟ يبدو أن صمتي لا يكفي لإجبارها على إغلاق فمها. هنا النزلاء غير مهذّبين ومنعدمو الأخلاق، لا تهّمهم رغبة بعض النزلاء بالنوم ويرفضون خفض صوت التلفاز. يبدو أنّني مزعجة للآخرين ولذاتي أيضاً. أين دانا؟ اتصلوا بدانا، لا يهمني كم الساعة الآن، أريد أن تحضر دانا على الفور.

أنا هنا يا بكّيّة. ستخرجين خلال يومين.

أخرج، أعود، إلى أين؟ عادة ما يمضي المرء إلى منزله، وأنا لا بيت لي هنا في هذه المدينة. بيتي هناك. وتصيح العجوز: دعك من هذه الأفكار السوداويّة، سالي بانتظارك، ولا بدّ أن رجلك قلق عليك ويشتاق لرؤيتك. لم تخبريني شيئاً عنه حتى اللحظة.

هناك أحاديث يصعب تجنّبها بقراءة الكتب وشرب الشاي.

تقف دانا وتتوجّه إلى النافذة. تنظر إلى طائر الحمام الذي حطّ على الإطار. عيناها تمتلئان بمياه البحر ولا تلتفت نحوي،

تدرك جيداً بأنها إذا فعلت ستغرق الغرفة بالزرقعة. أنا لست متزوجة ويطير الحمام. إذاً، لم يسبق لك أن تزوجت؟ تسأل دانا.

- أتظنين أنّ معالم الرجولة لديّ تطغى على الأنثويّة.

- لا أعرف شيئاً عنك. أطلب من دانا أن تستدير لتراني جيداً.

- هل تظنين حقاً بأنّي امرأة متزوجة؟ أنا رجل يا دانا وجسدي مجرد تفاصيل. دانا لا تلتفت وأخبرها بأنّي قد قرّرت أن أصبح مرابطة بعد مغادرتها وأنني استلمت رسالتها.. قبل يومين فقط.

الربع يملأ أنحاء المكان، يمكن رؤيته بالعين المجردة. الربع يتسلق جسدي وينطلق من أخمص قدمي ويزحف إلى الأعلى. يضغط على حنجرتي، تجحظ عيناوي ويلتوي الجسد في الاتجاه المعاكس، في الاتجاه الخاطيء نحو الماضي.

إذا أردت أن تدمري حياتك عودي إلى أسوأ فترة في الماضي.

- هل استلمت الرسالة قبل يومين فقط؟

- أنت لا تعرفين شيئاً، بعد تلك الأمسية التي أمضيتها معك، تغيّر مجرى حياتي بالكامل. لم أتزوج نيمانيا. أتظنين بأنّي قادرة على أن أفعل ذلك؟ أنا أحبك يا دانا.

استعادت دانا شبابها أمام عينيّ تدريجيّاً. شعر رأسها قصير ووجهها ورديّ. تنشط آلة الزمن ونعود إلى الماضي. الغرفة تظلم، نفوح في أنحائها رائحة الطحين، تضيء معالمنا في

العتمة ونبذو مرثيين.

عين الثعبان خطّاف يا حبيبتى
عين الثعبان أدنّ.

بعد تلك الليلة التي أمضيناها في معمل الأجبان انهار كلّ شيء. أنتِ لاتعرفين قوانين وبنود التشريع ولستِ مجبرة على ذلك. لكننا أنا وأنتِ أقدمنا على خطوة، سحبنا الحبل من تحت أقدام كلّ أفراد العائلة. هذا لا يعني بأنّي نادمة على ما حدث. تلك الأمسية كانت هي الأجل في حياتي والأكثر رعباً أيضاً، لأنّ التشريع يسمح للعريس بقتل عروسه إذا تبين أنّها ليست عذراء.

تبكي دانا وتمسك وجهي بين يديها، أدركتُ أخيراً أسباب قلقي وأعرف بدوري كيف تشعر هي في الوقت الراهن.

الإحساس الذي يتملّك حين تغوص في مستنقع مدرّكاً بأنك ستغرق إذا لم يشدّ يدك شخصٌ ما هناك.

- لماذا لم تمنعيني يا بكيّة وأنتِ على علم بتبعات فعلتنا؟
- كيف لي أن أمنع أجمل حدثٍ في حياتي. هذا ليس عدلاً.
- تقصدين بأنني قد شاركت بحكم قتلك يا بكيّة؟ أريد أن

أختفي، أنا ذاهبة.

- لا، لا تذهبي أرجوك. أنتِ لا تتحملين أيّ مسؤولية، أرجوك أن تستمعي إليّ. بعد عودتي من معمل الأجبان أخبرت والذي برغبتني أن أصبح مرابطة. هذا القرار وضع نقطة بداية العداء مع عائلة نيمانيا والتشريع ينصّ على ضرورة قتل رجل من عائلتي لغسل العار وكان عليّ أن أضع الشارة السوداء على ذراع أبي أو أخي. وضعتها على ذراع سالي في تلك الليلة التي حضرت تحملين فيها الرسالة. أخذ أخي الرسالة متمنياً موتي، لذا لم يسلمها لي. أراد أن أذهب معه إلى الجحيم حيث أنتمي وفي المساء هرب سالي.

لم تتمكّن دانا من كبت دموعها. بكت مطوّلاً ثمّ انطلق صوت شخير المرأة العجوز.

- هرب سالي ووضع والذي الشارة السوداء على ذراعه وقتلوه. قبل شهر حضرت صُحُفِيَّة لتجري معي لقاءً بعد أن تبيّنت بأنّي آخر امرأة مرابطة في الإقليم. عندها أخرجتُ كلّ الرسائل التي بعثها سالي خلال تلك السنوات. أرفق أخي رسالتك في آخر رسائله. عندها رمت دانا بنفسها فوقي وطفقت بالبكاء. بكت كما يفعل الذين يعرفون جيّداً بأنّهم غير قادرين على إعادة الزمن إلى الوراء.

- لم تتغيّر مشاعري تجاهك يا دانا، أبقىْتُ على وفائي لك، واحتفظت بالكلمات التي تبادلناها متراكمة في أعماقنا كما تفعل

المناجد الحافرة لباطن الأرض.

أحبك

أحبك

لا يمرّ يوم من دون أن تضغط يد دانا فمي بقوة، يدها جزء لا يتجزأ من وجهي. أتقبّل هذه اليد وهذا الجسم الغريب جزءاً منّي. العينان تفيضان، نتبادل القبلات، تلتفّ أيدينا الملوّثة بالطحين، تتشابك ضفائر شعرنا. غطاء الليل يضمّنا، يخفينا عن العالم الخارجي.

هذه الليلة ستعجنُ روحان بالدمع أرقّ رغيف خبز.

زمامُ السماء

النور الذي يتسلَّل عبر ستائر النافذة يحزُّ عينيّ، وحدي في سرير المرض وعلى الدولاب ورقة ملصقة. هل أموت الآن أم بعد قليل، منعوني من الوقوف لكنّي مع هذا أقف وأنتزع الورقة البيضاء ثمَّ أتجه نحو العجوز في السرير المجاور، أهزُّ سريرها لأوقظها. تستيقظ وتصيح:

- ماذا دهاك يا فتاة، هل جننت؟ دعيني أنام، أنا لا أفهمك.

- اقرئي محتوى الورقة. ربّما بدوت في تلك اللحظة كقاتلة للعجائز لكن هذا غير مهمّ.

- أنتم معشر الشباب لا تكتنون الاحترام لكبار السنّ.

- اقرئي.

تمدّ العجوز يدها باحثة عن نظارتها، أساعدها وأقدّم لها النظارة.

- لا أفهم فحوى الرسالة، ليست باللغة البلغارية. ولا أفهمك أنتِ أيضاً، دعيني وشأني. تصرخ العجوز ثمَّ ترمي الورقة على الأرض. أنحني لالتقاطها، ينفتح الباب لا بدّ أنّهم قد سمعوا جلبة

خلافنا في الغرفة. يدخل أخي سالي.

- بِكِّيَّة، ما الأمر؟ أقف على قدمي وأمدّ الورقة أمامه. اقرأ يا أخي، ماذا في الرسالة؟

صباح الخير يا بِكِّيَّة،

أخبرتكَ بأنّي على وشك السفر في منحة إقامة أدبيّة لكنّي لم أخبرك بأنّ البارحة كان آخر أيامي في صوفيا وعليّ أن أسافر نهار اليوم إلى بريطانيا. العقد المبرم يسمح لي بالبقاء هناك لمدة عام كامل ويمكنني البقاء بعد ذلك بصورة دائمة. سامحيني لأنّي اخترت هذه الطريقة للانفصال. أنا لا أودّعك لكنّي أرى أنّه من الأفضل لنا أن نتجنّب لحظة الوداع المؤلمة. الصباح الباكر لم يخفّف من مشاعر الذنب لكلّ الأحداث المأساوية التي تعرّضت لها أنت وعائلتك وتثقل عليك. أظنّ بأنّي لا أستحقّ هذا الحبّ وهذه السعادة الوارفة. يبدو أنّه قد كتب علينا البين والبعد وتحمل مسؤولية عمليات القتل غير المتعمّد التي اقترفناها أمام الخالق وتبعاتها. الأيام الأخيرة كانت الأجمّل طوال حياتي. أعادتني لمرحلة شبابي اليافع ولتلك المرحلة البريئة وأقنعتني أنّ الحبّ يتواجد ما خلف الذنوب والخطايا أيضًا.

هكذا كنّا ويتعذّر وصف معالم السلام الذي عمّ روحينا في ساعات الصباح الباكر وفي أوقات متأخرة من المساء أيضًا حين تخرج عقارب الساعة من إطارها ليصبح الوقت مجرد تفاصيل، بذرة في وجه كوكب الأرض الذي تشكّكين بدورانه حين أحّدق بعينيك.

امتلكتك ثانية ليلة الأمس، سلّمتِ نفسك لي للمرّة الأولى بالكامل وهذا هو الأهمّ. امتلكتك في سريرٍ مغطّى بأعشابٍ قطنيةٍ وبقينا مستيقظتين حين اندلع البركان من عمق الوسادة وكنا على شفا نومٍ في حمى لقاء الجسدين ليذوبا في جسدٍ واحدٍ مكتفين بمتعة التوحد.

لو كنتُ الآن معك في هذه اللحظة ورفعنا ستارة النافذة لشاهدت كيف تفتحُ رافعةً افتراضيةً تتمركزُ فوق صوفيا عروة السماء ليتدفق النورُ في الغرفة كقطة أليفة، كأسدٍ مشمسٍ، نرفض اللعب معه ومزاحمته لتغطي إحدانا بيدها وجهَ الأخرى.

لسنا جاهزتين ولم نكن يوماً على استعداد لقبول الحياة خارج هذه الغرفة، أن نهض من السرير ونفتح على العالم الخارجي كما أبطال ماجريت دوراس الذين يبحثون بعضهم عن بعض طوال الحياة، وقبل انقضاء العمر يلتقون عبر اتصال هاتفي أو في عنوان صحيفة عريض.

أنا لا أعرف كيف أعمُ خارجة من تموجات الجسد الملتفّ مشيراً إلى اليابسة. صراخ متعتك شبيه بصوت طائر يوحى بجزيرة. نحن ناجون أو نكاد، لا أريد، لا أريد هذه اليابسة. اليابسة في أعين الخالات المتعبة وهي تنتظر في الطابور لدفع الفواتير.

الأرقامُ في عدادات المياه، سحبٌ من العلامات التجارية تهطل فوقنا، حلقٌ في أذن النهار من معدن رخيص، تنكة من الجبن، أسعار غير ثابتة، نسيت ما تبقى من المال يا سيدتي.

أنا الآن بعيدة كلّ البعد لما يزيد على مئة كيلومتر لكنني لا أزال في

قاربك. شعرك يهزني كغريقٍ عشرٍ عليه الصيادون صدفة، حين توقفت
السمكة عن شدِّ صنارة الصيد. وعلى حين فجأة أدركت أنّ الملح في
شعري هو مخلّفات دمعك، لعلك لا تفقدين أثري ثانية، لعلّي لا أغوص
في تبهنا. لوهلة فقد كلّ شيء قيمته وأهميته، أو انٍ مركبة متماسكة
لمشاعر تصبّ إسمنتها فينا. وأنا وأنت يا حبيبة محتجزتان في السرير،
المهد الوحيد لطفولتنا وركبنا الجريحة تشفى من آلامها. تتقاذف الكرة
وتحطّ عند نُصب. إنّهُ تمثالُ حبّنا وتعلّقُ روحين مندمجتين في روح
واحدة. روحان تهيمان دوماً في بوتقة موحدة في هذه الدنيا كمنصّفين
متماثلين.

هاتان أنا وأنت الجميلتان أكثر من أيّ وقتٍ مضى نخطّ مراسم
السلام والطمأنينة لروحينا. سهامان يطيران من عمق الساعة لنطعن قوس
قبة السماء.

سأفتقدك كما تفتقدينني دائماً
المخلصة أبداً
دانا

العودة

تتعرّج الطريق والحافلة تهزّ جسدي كأنّ في أعماقها شخصاً ميّتاً ويرتفع صوت أغنية غير مألوفة من الراديو. كيانٌ تافهٌ يظنّ بأنّه قادر على الهرب من حياته. ما دام قد وقع أسير الحياة مرّة فإنّ الهرب يتعدّر إلى الأبد. أنا إحدى أولئك الذين ولدوا من دون جنس وخارج المكان وساعدني الحظّ على البقاء على قيد الحياة. اسمي «بكيّة» ويعني الباقية، المرأة التي نجت. هراء وكلامٌ بلا معنى. كلّ شيء مجرّد كذبة ودعابة. أنا أكبر كذبة في حياة والدي. الشاحنات على الطريق تقيس مقامات جهنّمي، وإذا ما انقلبت الحافلة في القناة على جانب الطريق سأرتاح من ذاتي ومن أفكارني المتداعية التي لا تتوقّف. يرتطم طائرٌ بزجاج نافذة الحافلة. توقّف دورية شرطة سير الحافلة لتعاین الوثائق وتذاكر السفر، أقدم تذكرتي المثقوبة في أكثر من موقع، لكن هذا لا يمنع من المضيّ إلى الأمام قدماً إلى الوجهة النهائيّة، إلى المكان الذي ننتمي إليه، إلى البيت هناك حيث قصّت الأجنحة لأول مرّة.

- بكيّة، هل أنتِ واثقة من قرارك بالعودة؟

- نعم أنا متأكّدة يا سالي. أمثالي لا مكان لهم في هذه الدنيا.

- دعك من هذا الحديث. يمكنكِ دوماً الاعتماد عليّ، سأنال

إجازة قريباً، انتظريني سأحضر لزيارتك يا أختي.

وداعاً.

كم أنا غبية، كيف ظننتُ أنّ السعادة ممكنة في مكانٍ آخر من دون أجنحة. يصعب التنفّس في هذه الحافلة، لم يتبقَّ فيها هواءٌ نقّي. أشعر أنّ قدري قد جرفني. دانا على حقّ، على كلّ واحدٍ أن يتحمّل جزاء أعماله. حقيقة أن الخالق قد منحني وإياها شامة في نقطة التقاء الأضلاع فوق القلب مباشرة لا تعني شيئاً. كما يبدو أنّ الوقوع في حبّ شخص ما أحياناً غير كافٍ بحدّ ذاته. أين أذهب ولمن أُنح كلّ هذا الحبّ؟ هل أُنحه للكلاب الضالّة!

تتوقّف الحافلة عند مظلة المحطة الصدئة، هذا موقفي الأخير. أحاول أن أقف على قدميّ لأعادر الحافلة، لكن كما في الحلم يرفض والدي رغبتني وقراري. كأنّه على علم بأنّ الفرار غير ممكن والسيرُ إلى الأمام قرارٌ عبثي للغاية. تتملكني الرغبة لأصيح بملء صوتي، لتعود الحافلة أدراجها. يسألني أحدهم: إلى أين تسافرين يا سيدة؟ إلى اللامكان الذي أنتمي إليه، هناك سأعادر الحافلة. ينغلق باب الحافلة من خلفي. الرياح الألبانية تعبق بشعر رأسي. لا بدّ أن هبّتي تشبه الحمار مرتدية هذا الثوب والحذاء اللامع. أخلعه من قدميّ وأرميه بعيداً في الحقل. ينطلق الحذاء كالطير في السماء لتتساقط الفردتان الواحدة بجانب الأخرى...

منفصلتين

الآن أدركت كيف تموت الطيور
أمضي في الطريق حافية القدمين
هكذا يسير المرء تجاه الخالق
أنا قادمة يا والدي.

إله

لا أفهم

هل يمكنك أن تخبرني

ماذا يعني

دعني أستمع لنشرة الأخبار

وما معنى:

خبر عاجل

انتحرت فتاة

بجبل السرة؟

أنا على بيّنة الآن إلى أين تقودني رغباتي. الخوف من الموت،
الغضب، الحسد، الحيرة وما تبقى من مختلف المشاعر القادمة
من الظلّ والخالية من الأمان. مشاعرك تجبرك أن تتخذ قرارات
خاطئة، أن تتأكل ذاتياً وأن تأتي على الكيانات الأخرى، أن تهضم
أخاك. أن تفتح بوابة المدخل الرئيس، كلّ شيء في الداخل

على حاله كما تركته باستثنائي. كل شيء في أعماقي كما هو
باستثنائي. أرى وسط الغرفة كوم رمادٍ من الصور والرسائل.
لماذا توجب عليّ القيام بذلك؟ لماذا حرقتها، أريد أن أموت.

أين بنطالي، أين حذائي؟ أين هما؟ أرندي بنطالي على عجل
وأنتعل حذائي القرويّ الثقيل. أفرك يدي كي لا أجنّ. أرندي
البنطال والحذاء الثقيل وأبدو كمسخ. أبدو..

أسفلي امرأة
وجزئي العلويّ رجل

أتراني؟ صراخي يعلو صدى أفكاري المدويّة المتهاويّة.
أرضية المكان باردة ولا أملك دمعاّ أسحبه فوقها. جسدي جفّ
بصورة نهائية في هذه الحياة. أصرخ وأصمت من دون فائدة.

مزيد من الصمت..

أسمعين؟ تراجعت أفكاري ليحلّ مكانها الصمت. صمتٌ
وقيظ. أتري حجم الصمت الهائل ومشاعر السكون المروعة
التي تنتابك حين تفقد كلّ شيء دفعة واحدة. أهذا هو أنت يا
إلهي؟ أخبرني، ما اسمك، أسمع خوار البقرة وعرير الصراصير
بين الأعشاب وصوت الأجراس المعلقة في رقاب الماشية، هناك
بين كتل العشب الكثيفة تسقط حبة جوز ويحلّق طائر حمام.

يجتاحني السكون أنا غصن شجرة انقصف يعوم في مياه النهر إلى المنحدر. أهذا أنت. أعرف جيداً أنك المعنيّ وأنتك هناك، انتظرنني سأحضر لطرفك بخيوط النور. أتناول الحبل عن الحائط والكرسي الصغير، أنا في طريقي إليك يا أبي.

تهبط امرأة من الحافلة تحمل القليل من المتاع، يصعب تحديد حجمه وقيمته. تذهب إلى هناك حيث أشار عليها شخصٌ أن تنطلق في طريق القلب. تقودها الذاكرة، القلب يعرف عن ظهر قلب طرائق الروح. تمرّ بالقرب من طاحونة الماء، ينطلق من عمقه ضحك طفوليّ ثمّ تعبر بالقرب من معمل الأجبان هناك من يهمس، وبالقرب من مياه النهر النشطة، هناك من يغسل جلوداً غير مدبوغة. تذهب إلى هناك حيث يقف شخصٌ أمام الباب الذي حُفر فوقه صليب خشبيّ صغير. لا يطرُق الباب الخارجي، يدلف إلى الداخل ولا ينادي فهو يبحث عن شخصٍ بعينه لا ينتمي لهذا البيت. تبحث عن بكية. هل أنت في البيت يا بكية؟ الصمت يخيم في كلّ أنحاء البيت، ينطلق صوت البقرة نوراً فقط. تذهب المرأة إلى مصدر الصوت، باب الحظيرة مفتوحٌ، تتخطى العتبة ثمّ تضع يدها على فمها، تبكي وتصيح بحرقة حين تقع عينها على ذلك المنظر آخر ما كانت تتوقّع أن تراه حين قرّرت عبور العتبة.

بكية تجلس فوق الكرسيّ الصغير، تمسكُ بيدها حبلاً، الجزء الآخر من الحبل يشدّ قدمي العجل الصغير الذي ولد للتوّ، يتصاعد البخار الساخن من جسده الطريّ ولسانُ أمّه يلعقه في كلّ مرّة

يحاول فيها العجلُ أن يقف على أقدامه الأربعة.

بِكَيْةٍ! تبكي المرأة التي هبطت من الحافلة وانطلقت إلى هذا العنوان حيث يعني اسمي فيه «البقاء». بقاء المرأة التي تمكّنت من النجاة. تنظر بِكَيْةٍ إلى المرأة ثمّ تنقل نظرها إلى العجل الصغير، تبكي وتبتسم وتبكي. تبكي المرأتان وتضحكان. تقف بِكَيْةٍ وتعانق المرأة. تبقى الاثنتان على حالهما متعانقتين لوقتٍ طويل وتصمتان. لا تفعلان سوى ذلك، العناق والصمت. يعثر العجل على ضرع البقرة الأم ويرضع بصخب. تهبط على أذن العجل ذبابة ولا تتوقّف البقرة عن لعق جسده في موقع الذبابة أيضاً. في هذه اللوحة تحديداً تشعر المرأتان بأثر الخلود، عثرتا على السعادة المشبعة بالحبّ وفي مركز الحبّ ونواته عثرتا على ذاك الذي يستحيل تحديد معالمه وكنهه، عثرتا على الخلود الذي يتعدّر استدعاؤه.

نهاية البداية

تلك كانت حكاية بكّية، الفتاة الأنثى التي رغبت أن تصبح ابناً ذكراً. اختارت تلك المرأة الحياةَ أمامَ الموت. هي ذاتها التي علّمتني الطموح والكتابة بقلبي. أهدي هذه الرواية لها ولكل من يجد ذاته طيِّ هذا المؤلّف.

لست آسفة لأنّي غادرت مقرّ إقامتي الإبداعية، يجب على كلّ شخص أن يتواجد هناك حيث أفكاره، ولو لم تكن بكّية من حولي لما تمكّنت من كتابة هذه الرواية. أرغب بالتأكيد على أنّ الحبّ ليس حكرًا على جنسٍ واحدٍ فقط، ولا يخضع للقوانين ولعامل الزمن وإذا ما انطلق المرء ضدّ إرادته الذاتية فإنّ الحياة ستضمّر له العداء. أومن بتوازن الحياة وبالطبيعة والسكينة التي نشعر بها حين تغوص أقدامنا في الأرض ونشعر بخفّة وأنّ السلام قد ملأ رحاب أنفسنا وأنّ فرحًا مطلقًا يملأ فضاءات إنسانيتنا. هذه هي اللحظة التي يمسك فيها الخالق بيدنا، وما علينا سوى أن نبتسم ونتتبع أثر الإله.

دانا. ك.

مؤلّفة رواية المرابطة

أديب مشارك في المنحة الملكية الإبداعية للكتاب

«فينغرسميت»

بريطانيا العظمى